د. محمد ياسر حسكي لينا مصطفى الزيبق

الحب

رواية عن التعلقات

مكتبة الكندي العربية

الحب

الحب

محمد ياسر حسكي وَ لينا الزيبق

حقوق النشر محفوظة للناشر ©

بناية يعقوبيان بلوك B طابق 3 شارع الكويت
المنارة بيروت
لبنان تلفاكس: 009611740110
Email: alkhayal@inco.com.lb
www.darelkhayal.com

التنفيذ الفني دار الخيال

الطبعة الأولى 2016

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الألكترونية أم الميكانيكية؛ بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الحب

رواية عن التعلقات

د.محمد ياسر حسكي لينا الزيبق

يا سيّدي لا تسلمني إلى إغواء النفس
لا تتركني مع أي سواك
لخوفي مني أُسرع إليك
انا منك فأعدني إليّ

مولانا جلال الدين الرومي

إهداء

إلى القلوب المُحبّة دون تعلّق.
إلى الذين أدركوا أنّ محبّة الإله هي أساس كلّ شيء.
وأنّ محبة الإله فوق كلّ شيء
إلى الذين ما زالوا يتعثرون في تعلقاتهم.
لا تخلو الحياة من الحبّ.
وإلا لما كانت حياة!

محمد ياسر، لينا

عند شاطئ البحر

الفطرة

تألّقَت قطع المرجان الملون مع أشعة الشمس النافذة عبر صفحة الماء ، وسرعان ما غابت اللوحة عندما اخترق"هادي "الصغير لجة البحر ، وغاص ناظراً إليها عن كثب.

كانت خصلات شعره البنية تتماوج مع حركة الماء وهو يدفع نفسه بأطرافه الأربعة والابتسامة تعلو ثغره الصغير.

كان المشهد أكثر جمالاً عن كثب ، وكانت الأسماك الصغيرة تختبئ بين قطع المرجان المُستلقية على رمال البحر.

فجأة شعر الصغير بيد تُمسك بقميصه وتنتشله من الماء بسرعة خاطفة ، وكان صوت والده يُعنفه" :لقد أطلتَ المكوث تحت الماء حتى خشيتُ أنك غرقتَ أيها الولد."

ضحك الصغير في داخله ، واكتفى بابتسامة ، فلم يستطع أن يقول لوالده إنّ البحر لا يُغرق إلا من جهل أنه عالم سعيد.

كيف لا يكون عالماً سعيداً كما يراه هادي ، وكلّ ما فيه يُدخل البهجة إلى القلب ، فهو يشعر بصداقة معه ، ويعلم بطريقة ما أنه سيغوص فيه مراراً ، وأنه سيكون له خير مُعين ومُرشد ، كان يشعر بالغوص وكأنه تعارف ، بل تلاحم قوي مع البحر الذي كان يعِده أن يكون حامل أسراره.

كان الصغير هادي يحلم وهو يمشي على الرمل الأملس، بالصداقة مع الدلافين الحقيقية التي يمتلك مثلها على شكل دلفين مطاطي تعلّم معه السباحة في أول عهده بالبحر، ثمّ ما لبث أن تركها كي يكون دلفينا بارعاً في السباحة والغوص خلال عدة أشهر.

كان هناك إلى جانب الشاطئ جبل شاهق عظيم، وكان هادي كثيراً ما ينظر إليه وفي عينيه بريق المُحبّ، وكأنه ينتظر أن يعتليه يوماً.

لطالما سمع حكايات عن صلوات الصالحين في محاريب هناك في الجبل العظيم لا يعلمها إلا الصالحين.

"هل لي بيوم أصل فيه إلى مكان صلّى فيه الأنبياء والصالحون من بعدهم؟."

سؤال كان يلح على بال الصبي أعواماً طويلة، ولم يكن يدري أنّ ما كان يراه من عوالم نورانية لم تكن للعموم .كان يرى عوالم وأشياء نورانية لم يُدرك ما هي إلا بعد أن مضَت السنوات، وقابل الأتقياء، وتعارف مع الصالحين، ليعرف بعدها أنه كان في رعاية عالم النور.

كانت رمال الشاطئ سجادته الكبيرة، وصوت أمواج البحر تسابيح على مدار اليوم تُهلل وتُكبّر هائمة مثله في حُبّ النور الأبدي.

في كلّ صباح كان يمشي قرب البحر حتى تتبلل رجليه، ويُمرّغ قدميه برمل الشاطئ وهو يُدندن ألحانه الصبيانية اللطيفة.

كان يذهب إلى هناك وكأنه على موعد مع شيء ما، ولم يُثنه عن الذهاب تنبيه الوالدين ولا حتى إرعابه من فكرة اختطافه، وخاصة أنه كان يخرج من

البيت بعد صلاة الفجر مباشرة حيث لا تزال العتمة تُخيّم على كلّ شيء ، وحينما يصل إلى الشاطئ يملأ صدره الصغير بنسائم الفجر المُعطرة برائحة البحر ، ويُغمض عينيه ويرحل إلى عالمه الجميل.

لم يكن هادي يعلم أنه يكتب ملامح قصته مع رمال شاطئ العرفان ومحيطاته ، ولم يكن يدري أنه سيستخدم الطين في علاجاته ، ولم يكن يعلم أنه على موعد مع سفينته التي كانت لا تزال مُختبئة في عالم الغيب تنتظر قصة نضوجه ، ويا لها من قصة نضوج!

تبقى سفينة العرفان الخاصة بكل أحد ، والتي يعرفها الأطفال بفطرتهم ، تنتظر الإنسان ، بيد أنه يبتعد عنها ويضيع عبر مسالك الحياة المختلفة ، ولا يعود إلى سفينته التي ستنقله إلى ذاك الطرف من عالم النور إلا من تولّته يد العناية الربانية.

لم يكن هادي يعلم أنها سنة الله في الكون أن يعرف الإنسان شيئاً ثم ينساه ثم يمرّ عبر الصعاب والمشقات من أجل استعادته .نعم إنه شيء موجود معنا دائماً ، ولكننا نختار أن نبحث ونبحث ، حتى إذا ما أنهكنا البحث واستسلمنا ، وجدناه معنا منذ أن كنا أطفالاً صغاراً حديثي العهد بالله كما يقولون.

كان هادي يحتاج إلى الكثير كي يعي مثل هذا الكلام ، فما بالك بأن يصل إليه ، وما كان يدري أنّ كلّ موقف ، بل كلّ لحظة في الحياة ستُعلّمه دروساً ثمينة ينضج ويرتفع بروحه من خلالها ، ثمّ ستستخدمه يد الله كي يُعلّمها ، ويُنير بها درب أناس أعياهم المرض ، ودرب أناس تاهوا في البحث عن النور.

كان لا بُدّ من أن يسير هادي في رحلته الحياتية ويفهم تعلقاته وينتهي منها ، ويتعلّم من خلال تجاربه ، وكم كانت تجارب مريرة!

بيد أنّ هادي الطفل في هذه المرحلة كان ما يزال مُنتشياً بفطرته ، مُتصلاً مع كلّ الكائنات ، يشعر بها وتشعر به ، كان ما يزال يشعر أن السماء قريبة ، وأنّ كلّ شيء يُخاطبه ، ويتصل مع فطرته حديثة العهد مع الله.

هذه الفطرة هي التي يحتاج أيّ والدين إلى المُحافظة عليها ، وحمايتها من الانحراف ، ولكن هيهات أن يحدث ذلك في مجتمعاتنا التي تفعل كلّ ما في وسعها كي تُبرمج الطفل كي يُصبح وفق قوانينها وتقاليدها !وما أكثر القوانين والتقاليد البعيدة عن الفطرة!

إنّ سعادة الطفل ، أيّ طفل ، في هذه الفطرة والبراءة ، وفيها أيضاً سعادة والديه ، وسعادة كلّ من حوله ، بيد أنّ مفاهيم السعادة حتى قد تمّ تحريفها !

ذات صباح ، جلس هادي في مكانه المُعتاد وراح يتأمّل ألوان البحر ، يتلمّس بيديه مياهه المُنسابة ، ويسمع صوت هديره وكأنه خطاب عميق عميق.

يوم تأمل عفوي

أطبق جفنيه وراح إلى مكان بعيد جداً ، حيث كان كلّ شيء باللون الأبيض ، وكأنه في عالم خاص به ، إذ بدا له كلّ شيء مألوفاً .إنه يسير دون أرض تحته ولا سماء فوقه ولا شيء حوله سوى اللون الأبيض ونور يُطلّ من بعيد ، وهناك في غمرة سعادته سمع صوتاً وقوراً يُرحّب به:

"أهلاً بك هادي ، ما الذي أتى بك الآن ؟ ألا يزال الوقت مُبكّراً ؟."

إرتبك هادي وتلفّتَ حوله حتى يرى مصدر الصوت ، فرأى رجلاً مُتوسط الطول يلبس ثياباً بيضاء ، بلحية بيضاء ووجه أبيض سعيد باسم يُشعّ بالنور والسرور.

"الوقت مُبكّر ؟ ماذا تقصد يا عم ، أين أنا ؟."

اقترب الشيخ من هادي ووضع يده على رأسه وقال" :اشتقنا لك يا ولدي ستعود إلينا قريباً ، عُد الآن من حيث أتيت ، أنت في حاجة إلى الزاد."

فتح الصغير عينيه ولا يزال يشعر بيد الشيخ على رأسه" :هل كان حُلماً ؟ ،" تساءل هادي ، ولكنّ تلك الرائحة الفواحة العطرة لا تزال عالقة في أنفه ، ولا يزال جسده مُقشعراً ، وروحه سامية.

إستلقى فوق الرمل مسروراً ، وقرر ألا يُخبر أحداً عمّا حدث له في ذلك اليوم.

عاد هادي إلى البيت وكأنه يُحلّق فوق غيمة بيضاء .لاحظ الجميع إشراق وجهه ، وتساءلوا عمّا يخفيه في داخله ، ولكنه بقي صامتاً باسماً وعيناه

تضحكان.

أُصيب هادي تلك الليلة بحمّى حادة جعلته يرتجف طوال الليل ، وكانت أُمّه تضع اللوم على رحلاته الصباحية" :لقد أُصيب بالحمى بسبب ذهابه إلى الشاطئ قبل طلوع الشمس ، هذا الولد العنيد."!

بيد أنّ تلك الحمّى كانت تحمل رسالة لجسده الصغير بأنه لا يزال في حاجة إلى المزيد من التدريب ، وأنه لا يقوى على احتمال تلك الأنوار التي سيقت إليه من حيث لا يعلم ، لم يكن يقوى في الصباح التالي على الذهاب إلى المكان السريّ ، فقد كان جسده منهكاً ، مع أنّ روحه كانت تطلب العودة إلى حيث كانت الحقيقة وأهلها.

مرَّت أيام وبقي الصبي فاتر القوى هزيل الجسد ، وكان والداه يُحيطانه بالحذر والرعاية ، كانت تلك الأيام مُؤشراً أحسّ الصغير من خلاله أنّ في داخله قوة واتصال شديد مع ذلك العالم النوراني الرائع ، ولكنّ جسده غير قادر على التعامل مع ما حدث معه.

بعد عشرة أيام كان الصبي عند شاطئ البحر ينظر بعينيه البنيتين فيختلط لونهما مع زرقة البحر الذي يُعطيه شعوراً أنّه يتلاشى عن المكان.

في ذلك اليوم كان هادي ما يزال يشعر بوهن ، إلا أنه قادر على الحراك ومُستعدّ كلّ الاستعداد من أجل القيام بتلك الرحلة العجيبة ذاتها ، ولكنّ شيئاً لم يحدث !لم ينتقل إلى عالمه العجيب ، ولم يلتقِ بذلك الرجل الأبيض الجميل .ترى هل كان حلماً !هل كان ما رآه من أعراض بدايات مرض الحُمّى معه !في مدة عدة أيام ، كانت تلك الخواطر تجول في رأسه الصغير ، في مُحاولة إدراك ما حدث في ذلك اليوم.

أصبح الصبي على غير عادته غير راغب في تناول الطعام ، شارد الذهن ، قليل الحركة .كان أخاه الأكبر"خليل "يدفعه من أجل العودة إلى القيام بمُغامراتهما الصبيانية المملوءة بالصخب والحركة ، إلا أنّ هادي لم يكن راغباً في أيّ منها.

لم تكن العائلة في حالة اجتماعية تسمح بالكثير من العناية بالصغير ، فقد شُغلت الأمّ بإعداد الطعام ، وتلبية احتياجات البيت ، والعناية ببقية صغارها ، وكان الوالد غارقاً في الكدّ والعمل ، فالحياة في حاجة إلى المزيد من الكفاح حتى يتمكّن من تـأمين الحدّ الأدنى من مُتطلبات العـائلة ، ولا سيما أنهم في غربة والعائلة كبيرة.

التعلقات الأولى

حدث ذات يوم أن ترك بعض الجيران العائدين إلى بلادهم عصفوراً جميلاً في قفص عند أسرة هادي ، وقد انبرى الصبي الصغير كي يعتني بهذا العصفور. لقد نشأت بينهما صداقة عميقة.

كان هادي يتكلّم مع العصفور كثيراً يسأله عن أحواله ، يُطعمه ويستمتع بتغريده أحياناً ، ولكنه رآه مُختلفاً تماماً عن تلك الطيور التي يراها في الطبيعة على الشاطئ .نعم لا شك أنّ هذا العصفور ينقصه شيء كبير تتمتع به الطيور على الأشجار.

إنّ هذا العصفور حزين ، وهو لا يُغرّد إلا قليلاً ، وقد عزا هادي الأمر إلى أنه ربما يشتاق إلى أصحابه الذين تركوه وسافروا ، ولكنه بعد فترة ظنّ أنّ هذا العصفور سجين قفصه ، وأنه رُبّما يشتاق إلى الحرية.

أطلق هادي العصفور خارج القفص ، وقد أثار استغرابه أنه وجده عائداً إلى القفص في الصباح.

أصرّ الصبي الصغير ولسبب مجهول على أنّ هذا العصفور يجب أن يعود إلى عالمه ، وفكّر أنه رُبّما عاد إلى القفص لأنه لم يجد الغذاء الكافي ، وهكذا ببراءة الأطفال أطلق سراحه مساء ، ووضع له كومة من الحبوب كي يتغذى على الشرفة ، وأقفل باب الشرفة والنافذة.

في الصباح استيقظ هادي ليجد عصفوره ميتاً جانب النافذة ، فاعترته مشاعر

هائلة شعر بها للمرة الأولى في حياته وراح يتساءل" :هل هو برد الصحراء في الليل الذي جمّد العصفور وقتله؟ كيف تعيش بقية الطيور اذاً؟ لماذا لا تتجمّد من البرد؟ لماذا لم يُحبّ العصفور عالم الحرية؟ لماذا تعوّد على سجنه؟ كيف حدث أنه فضّل السجن على الحرية؟ هل هو، هل هو؟ قد أكون أنا القاتل."!

لقد اعترته ولأول مرة في حياته مشاعر الشعور بالذنب فبكى طويلاً، ريثما استيقظَت الأسرة كي تجده يتهيأ مع أخيه من أجل دفن العصفور تحت النخلة في ساحة البيت .وقف الأخوان يُصليان على العصفور الميت ودموعهما تنهر بغزارة، ثمّ قام هادي بحفر حفرة دفن فيها العصفور الجميل وألقى فوقه التراب.

كانت هذه تجربة هادي الأولى مع الموت، وقد فكّر ليال كثيرة في هذا الذي كان موجوداً واختفى من العصفور !ما الشيء الذي سُلبت معه الحياة؟ لماذا يموت العصفور ويموت كلّ شيء؟ لماذا لا تستمرّ الحياة كما يراها سعيدة، جميلة، مُشرقة؟

لم يكن يدري حينها أنّ الموت مُلازم للحياة، وأنه سيكون له لقاءات أُخرى مع الموت لاحقاً.

لم يكن يدري أنه سيُعلّم بعد عشرات السنين معاني الحياة الطيبة للناس، كي يكون موتهم انتقالاً إلى حياة أكثر طيباً وأكثر نضارة.

لم يكن يدري أنّ النقائض مُتلازمة، وأنّ أحدها يظهر على السطح بينما يقبع الآخر مُختبأ في العمق، وأن كل حياة لا بُدّ لها من موت، وكلّ ليل لا بد له من فجر يعقبه، وأنّ كل شيء يُعرف بضدّه.

لقد كان موت العصفور نقلة كبيرة في وعي هادي الذي واجه أول وأخطر وأكبر ما يُمكن له أن يراه خارج عالمه الجميل، أو هكذا بدا له !لم يكن هادي

يدري أبداً أنّ هذه أول تجربة تعليم حقيقي له ، وأنّ الحياة ستُعلّمه وتُعلّمه ، وتكون أكبر مُعلّم له ، وأنه سيكون التلميذ المُتمرّد الذي يأبى أن يفهم إلا بأسلوب العصا.

حاول هادي كثيراً أن يهتدي إلى كنه ذلك الشيء الذي وصفه الكبار بالروح ، والتي يبقى الجسد بعدها ميتاً عندما تُفارق الكائن الحي .حاول أن يرى كيف وأين ، ولكنّ دماغه الصغير أبى أن يفهم هذه الأمور ، فتركها وبقيت في نفسه تساؤلات كثيرة.

كانت هذه هي التجربة الأولى في التعلّق ، ولم يكن هادي يدري وقتها أنّ الحبّ الحقيقي يجب أن يكون للإله ، وأنه يجب أن يُحبّ كلّ الأشياء من خلال الإله ، فإذا اختلّ هذا الميزان ، أتت ظروف الحياة لتجعل الإنسان يُعاني من مشاكل ومواقف وأمراض تُشير له إلى موضوع تعلقه ، فإذا انتبه وعاد إلى حضن الإله أنعم الله عليه بالشيء أو الشخص الذي يتعلّق به مع الرضا والاستمرارية ، وإذا لم ينتبه إلى اشارات الحياة وبقي مُتعلقاً بالشيء أو الشخص ، على الرغم من المشاكل والعقبات التي تدلّه على ضرورة فكّ تعلقه ، يحلّ الفصل النهائي في القصة ويخسر الإنسان ما تعلّق به ، ويفقده إلى الأبد .

أراد الصغير هادي أن يُوسّع مداركه فما كان له إلا البحث ، كانت المُعلّمة في المدرسة تحثّ الطلاب على القراءة ، وفتحت لهم أبواب مكتبة المدرسة مُشرعة كي يلجها الأطفال بنهم .كان هادي أول من يدخل المكتبة وآخر من يخرج منها ، وسرعان ما صار الكتاب صديقه المُقرّب ، وكم كان يرغب في اقتناء كتبه الخاصة ، كان يُريد أن يرويها لأُمّه وإخوته ، ولكنه غير قادر على اقتناء كتب.

كانت نهاية الفصل الدراسي تحمل في طياتها هدية قيّمة للصبي ، فقد شعرَت

المُعلّمة أنّ الصغير مُولع بالمطالعة وأرادَت أن تبعث في قلبه السرور ، فقدّمَت له مجموعة قصصية مؤلفة من عشرين قصة عن الأنبياء من قصص القرآن ، وقد لاحظ التميّز الذي حصل عليه ، عندما رأى أنّ هدايا باقي الطلاب ، كانت قصة أو قصتين مع الكثير من الحلوى.

اقترب منها بخجل وسألها بصوته الرقيق:

-آنسة ، أريد أن أشكركِ كثيراً على الهدية الرائعة ، ولكن في بالي تساؤل مُلحّ.

-تفضّل يا صغيري.

-لقد أعطيتني مجموعة ضخمة من القصص ، بينما باقي رفاقي كانت هديتهم حلوى وقصّة واحدة ، هل هناك سبب لذلك؟ أعلم أنّ صديقي"ماهر "حصل على درجتي ذاتها ، ولم يحصل إلا على كيس من الحلوى وقصّة تحتوي صفحات قليلة.

-حلواك يا بُنيّ ليست سكاكر وبعض الشوكولاته ، لقد أدركتُ أنك تبحث عن حلوى لعقلك وليس عن الطعام ، أنتظر أن أسمع عنك أجمل الأخبار .إنّ مُستقبلك يُضيء كالمصباح في قلب الدجى.

لم يفهم الصبي كلّ ما قالته المُعلّمة ، ولكنه أدرك أنها فهمت ما يعنيه له الكتاب ، فغاص بين صفحات القصص بحُبّ ، وانهمرت دموعه وهو يقرأ حكايات الأنبياء وتمنّى لو أن لديه كتباً أكبر.

"سأحصل على مكتبة ضخمة ، سأقرأ كلّ أنواع الكتب ، سأُخصص لأبنائي أكبر مكتبة في العالم ، وسأُخصص من مصروفي جزءاً أشتري به كتاباً في كلّ

شهر."

كانت تلك هي أحلام هادي في تلك المرحلة ، حيث أنه عرف أسماء الأماكن التي بُعث منها الأنبياء ، وقرأ عن العجرفة والتعصّب التي كان يُلاقيها الأنبياء عند أول بعثاتهم ، وكيف أنّ بعض الأولاد والزوجات يُمكن أن يكونوا نقمة وليس رحمة ، فابن ابراهيم عليه السلام سلّم نفسه إلى الذبح طاعة لأمر الله إلى والده ، بينما غرق ابن نوح عليه السلام بعيداً عن الإله .لقد كانت امرأة فرعون صالحة تقية ، بينما كانت امرأة لوط عليه السلام عاصية بعيدة عن الله ، وفي كل الأحوال تبقى الفتنة في تعلّق الأب أو الأمّ بأولادهما ، أو تعلّق الزوج بالزوجة أو العكس.

***

جلس الوالد في يوم شديد الحرارة بعد عناء يومه الطويل مع أفراد الأسرة يُخبرهم أنه انتُدب من أجل العمل في مكان آخر ، ولا بُدّ للعائلة من مُغادرة المدينة كي يلتحق بالعمل الجديد مع بداية الفصل الدراسي الجديد.

هناك لا بحر ولا شاطئ ولا مكان من أجل اللعب إلا في أماكن مُخصصة.

لم تكن الفكرة تروق لـهادي وأخيه الأكبر ، فهما يُجيدان المرح بالقرب من شاطئ البحر ، حيث خطّا بأناملهما الصغيرة رسوماً على رمال الشاطئ كانت سبباً في مُغامرات طالَت أياماً عديدة ، وقد كانت كلّ أحجار الشاطئ تنتظر عبورهما فوقها ترقباً للمزيد من الضحك واللعب.

"لن يعود هناك مياه ترشقني بها هادي !لن أتمكّن من إلقاء رمال الشاطئ عليك ، ونعود إلى البيت لتُعاقبنا أُمّي لأننا في حاجة إلى الاستحمام كلّ يوم ،" كلمات كان يُرددها"خليل "على مسامع هادي ، كلما تذكّرا معاً السفر إلى مكان

آخر.

كان عند هادي مع هذا المكان ذكريات تختلف عمّا كان يجول في خلد"خليل ،"فلون البحر كان بالنسبة إليه بوابة السماء الزرقاء ، وبياض الزبد كان النور الذي لفّه عندما قابل ذلك الشيخ الجليل ، وصوت الهدير كان أغنية ما قبل النوم التي كانت تُداعب أسماعه كل ليلة.

حاول الجميع إقناع الوالد بالعدول عن فكرة الانتقال إلى مدينة أُخرى ، ولكنه كان يطمح إلى وضع أكثر راحة لأفراد أسرته.

لقد باتت المغادرة من فردوس هادي وشيكة ، وهو يرفض بشدة أن يُغادر ، لقد كان مُتعلّقاً بالمكان والبيت والذكريات ومرجان البحر الرائع ، في كلّ مساء كان ينام باكياً ، كان يشعر بمرارة الفراق ، ولم يكن يشعر أنّ حياته ستكون جيدة في مكان آخر.

"سأموت إن غادرتُ هذا المكان ،"تلك الفكرة التي سيطرت طويلاً عليه وجعلته أرقاً مُتعباً.

في إحدى الأيام الباردة ، لم يتمكّن هادي من الذهاب إلى الشاطئ طمعاً في رؤية الشيخ السري ، فنام وهو حزين على فراقه ، وهو يُفكّر فيه وكأنه يطلب منه الحضور للمساعدة ، فما كان إلا أن حضر الشيخ في منام الصغير:

-افتقدتك يا شيخ.

-إنني معك يا بُنيّ.

-سنُغادر المدينة ولن أراك ثانية.

ضحك الشيخ وضمّ الصغير إلى صدره وقال" :نحن الآن نلتقي في مكان لا

مكان فيه ولا زمان ، أنا إلى جانبك دائماً ، ولن يُبعدنا مكان ولا مسافات."

تهلهل وجه هادي فرحاً وغمرته سعادة كبيرة وهو بين ذراعي الشيخ.

-سيّدي ، لقد مرضتُ ولم تزرني ، كم كنتُ أتوقّع زيارتكَ لي.

-لقد كنا إلى جانبك طوال الوقت ، أُريدك أن تتذكّر على الدوام أنّ المرض وهم ، وأنه عليك ألا تستسلم للأوهام.

استيقظ والابتسامة لا تزال تعلو ثغره الصغير وتذكّر" :إنّ تعلقك بالمكان يعني أنك سترحل عنه قريباً."

أفاق وأذان الفجر يُدخل السكينة إلى كلّ أُذن يطرقها ، وصوت هدير البحر كأنه تراتيل فرح تحمل نسائم اليوم الجديد.

مرّت الأيام سريعاً ، وانقضى شهران ، وحان موعد الرحيل .لملم الجميع أغراضهم وركبوا في سيارة كبيرة واتجهوا في رحلة طويلة إلى الشمال .كانت المسافات طويلة وكان لا بُدّ من الاستراحة في عدة محطات لاستعادة نشاط السائق وتناول الطعام .في إحدى المحطات وبعد عدة ساعات ، وقف هادي و"خليل "ينظران إلى السماء ، تنهّد"خليل "وقال" :كُنا في هذا الوقت نلعب فوق رمال الشاطئ ، نتراشق بالماء ونلهو ونضحك."

أجابه هادي" :دعنا نصنع السعادة والمرح أينما كُنا ، فالبحر والشاطئ باب ، وفي الدنيا أبواب شتى من أجل استقبال الفرح والسعادة."

-من أين لك بهذا الكلام الكبير؟

-تلك هي كلمات صديقي الذي أثق فيه.

مكان جديد

وصلَت العائلة بعد طول عناء إلى المدينة الجديدة ، و شعر الجميع بالبون الشاسع بين المدينة القديمة وهذه !!كل شيء مختلف ، الأبنية شاهقة الارتفاع ومتراصة ، والمحال التجارية لم تعُد دكاكين صغيرة متفرقة ، بل أبنية ضخمة ومُرتبة ، وكانت السيارات الفخمة تملأ الشوارع .كانت الدهشة واضحة على وجوه أفراد الأسرة ، ولكنّ أحداً لم يقُل شيئاً ، وكان الصمت عنوان ذلك اليوم.

مرّت الأيام مُسرعة ، وبدأت العائلة تعتاد الحياة الجديدة ، حتى هادي عثر على مُتنفّس له ومكان لطيف لتأملاته ، كانت حديقة الحي قريبة من البيت وفيها بعض الأشجار ونافورة ماء كبيرة ، ولم يكن زوارها كثر ، رُبّما بعض المارة أو الغرباء عن البلاد مثله ، فسكان المدينة الأصليين يُفضّلون ارتياد الأسواق التجارية الضخمة والمطاعم الفاخرة والمقاهي العالمية.

لقد أخذ الشعور بالفقد بُعداً آخر في حياته ، فهو يُحاول منذ مُغادرة الشاطئ التأقلم مع فكرة أنّ التعلّق بالمكان سيضطره إلى فقده عاجلاً أم آجلاً ، لذلك كان وجلاً من التعلّق بالمكان الجديد ، فبدا وكأنه لا يكترث لشيء حوله ، وأحسّ أنّ جزءاً من مشاعره مُتبلدة ، لقد ساوره القلق وكان في حاجة إلى العون ، ولم يكن يجرؤ على البوح لأبيه وأمه ، فلم يكن واثقاً أنّ أحدهما سيتفهم ما يشعر به ، أو رُبّما لأنه لم يحدث أن دار بينهم حديث حول ما يشعرون به أو بأيّ موضوع له علاقة بنواح إنسانية .كانت الحياة تمضي ، وكل يُلبي حاجات الآخرين دون أن يعرف أحد ما يجول في خلد الآخر.

اشتدّ الكرب على هادي وبات شارد الذهن ، ولكنه كان يُدرك أنّ له سلوى في مكان ما ، وأنّ هناك من يستطيع أن يفهمه ويحتضن فكره ومشاعره ، مع أنه لم يعُد موجوداً !لقد غاب الشيخ شهوراً طويلة تاركاً هادي في حيرته .كانت مشاعر هادي متمحورة حول لماذا تركه الشيخ؟ هل كانت فترة ومضت؟ هل سيعود كي يُجيبه عن مئات الأسئلة والاستفسارات؟ ليته يعود.

كان يوماً شديد الحرارة وليلته كانت لهيباً حارقاً .الطرق على الباب في ساعة مُتأخّرة من الليل أيقظَت مَن كان يُحاول النوم وهو غارق في عرقه.

إجتمع كلّ أفراد الأسرة كبيرها وصغيرها أمام باب البيت ، وكان الطارق"حسّان "ابن الجيران الذي بدأ بالبكاء ، وهو يشرح للوالد أنّ أمه مرمية على الأرض ووالده مُسافر.

نزل الوالد والوالدة في لمح البصر إلى بيت الصغير ، وجلس الجميع في البيت ينتظرون ماذا سيحدث ، ومضَت ساعات طويلة والإخوة الصغار بعضهم افترش الأرض ، وآخرين ناموا وهم جالسون ، بينما كان هادي ينتظر" :ماذا حلّ بأُمّ جارنا."!

مع الفجر كان الصغير قد نام وهو ينتظر والديه ، وعندما دخل الوالدان أفاق ولكنه بقي في حالة الاستلقاء على الأريكة دون حراك وتجمّد في مكانه عندما سمع عبارة"رحمها الله."

لقد ماتت أُمّ ذلك الشاب الصغير !وبقيت في داخل هادي عشرات الأسئلة تنبع من أماكن يجهلها ، فتارة كان يشعر أنّ ألم السؤال ينبع من معدته ، ومرات يخفق قلبه بشدة وكأنه يُجيب عن السؤال ، ومرة تسري قشعريرة في جسده ، والتساؤلات والخوف يمنعانه من فتح عينيه آملاً أن يكون ما سمعه حلماً.

بيد أنّ الحقيقة باتت واضحة عندما نادى الوالد لأبنائه حتى يُوقظهم" :هيا يا أولاد ، لديّ مهام كثيرة هذا اليوم."

كانت لحظات لا تُنسى ، عندما رأى هادي الصغير"حسّان "جالساً على الكرسي قرب باب البيت ، مُطرق الرأس ، وجسده يهتزّ من شدة البكاء الذي يحاول إخفاؤه .لم يجرؤ هادي على الاقتراب منه ، ولا أن يقول له ولا كلمة ، بل وقف فقط ينظر إليه حزيناً مندهشاً وقد بدا أنّ الزمان والمكان توقفا ، وكأنهما وحدهما في الغرفة ، وهو يسمع شهقات البكاء والألم يعتصران قلب الصغير.

كانت تلك الحادثة كفيلة أن تُحوّل تفكير هادي تحوّلاً مُشوشاً ، فقد بات يرى أُمّه على هيئة أُخرى ، لم يعُد راغباً في إتعابها ، ولم يعُد يُريد لأحد أن يُجهدها ، وحتى والده بات يراه الرجل القاسي الراغب في تدمير أُمّه حتى ترحل عن هذه الدنيا.

لقد دعم فكرته تلك ذلك الشجار الحاد الذي دار بين أُمّه وأبيه ، وكانت كلمات أبيه كالمشرط في جسده ، وهو يُوبّخ أُمّه ، ويُهيل عليها الصراخ والكلام القاسي.

جلسَت تبكي وأحاط بها الأولاد ، ولأول مرة في حياته ارتفع صوت ابن العاشرة من عمره أمام أبيه" :لماذا تقسو عليها ؟ هل تُريد أن تموت."!

أدرك الوالد أنّ غضب الصغير نابع من حادثة وفاة الجارة أُمّ حسان ، ولم يفتح ثغره ، بل اكتفى بمُغادرة الغرفة تاركاً الجميع في حالة عدم فهم لتصرفه ، فلم يكن من عادته أن يسكت بصمت على هذا الشكل.

انتابَت الصغير ذلك اليوم كوابيس مُرعبة عن وفاة أُمّه ، وأنها رحلَت عن هذه الحياة ، وكيف أصبح الألم يعتصر قلبه .كانت ليلة قاسية لم تكن لتنتهي إلا

عندما أفاق الصغير وصلّى في جوف الليل طالباً من الله أن يرعى أُمّه.

التعلق بالمثاليات

استمرّ هادي يُفكّر ساعات طويلة إلى أن وصل إلى نتيجة مفادها أنّ أباه يجب أن يكون أباً جيداً كما يُريد له أن يكون" :لماذا يُصرّ أبي على التصرّف بعنف وعصبية مع أمي؟ رجل في مثل سنّه حريّ به أن يكون الأفضل، ولن أرضَ إلا أن يكون الأفضل."

لم يُدرك الصغير أنّ الأبّ المثالي ليس موجوداً، وإنما هو محض حلم يُراود الجميع، فلا أحد في هذا العالم مثالي، وما يراه البعض جيداً قد يكون عند الآخرين سيئاً، وما أحسبه قمة في الذوق يراه البعض قلة ذوق، وتختلف المفاهيم من مكان إلى آخر ومن بيئة إلى أُخرى، ولا يُمكن الجزم بأيّ شيء، فكلّها سلوكيات ونظام حياة نشأ عليه وعاش معه ولن يُبارحه مدى الحياة، إلا إن أراد أن يتغيّر، وإرادة التغيير في حدّ ذاتها أعظم سلوك مُكتسب يحصل عليه المرء طيلة حياته.

إنّ التغيير لا يعني أن ينسف المرء شخصيته وحضوره، بل هو ميزة إضافية تنشأ عندما يُراقب الواحد منا سلوكه وطريقة تعامله على جميع الأصعدة، ويُدرك أنّ هناك أشياء تنقصه وأُخرى لم يعُد في حاجة إليها مع مرور الزمن، فليس لي أن أغضب وأصرخ وأنا أُناقش أمراً يستوعبه الصوت الهادئ !وليس لي أن ألعن الحظّ العاثر وأنا من جلب سوء النتائج من خلال سلوكي ومنهجي، وليس عليّ أن أبقى في الظلام ما دمتُ قادراً أن أشعل شمعة تنسف العتمة وتُنير ما حولي.

زاره الشيخ في المنام وهو يُفكّر في هذا الأمر ، فراح يبكي بين ذراعيه طالباً منه أن يكون أباه ، فقال الشيخ باسماً:

-بُنيّ ، لا يُمكن أن تُغيّر أباك ، فأنت جزء منه ، حاول أن تتأقلم مع ما هو عليه ، وإلا فلن يُعجبك شيء في هذا العالم ، وستبقى رافضاً حانقاً إن لم تُحبّ الحسنات في كلّ ما يُحيط بك.

-ولكنه والد ظالم وقاس.

-وأنت ولد مُشاغب وعنيد.

-ماذا تقصد يا شيخي ؟

-أقصد أنّ كلّ أحد منا يمتلك صفات حسنة وأُخرى سيئة ، راقِب صفاتك الجيدة وطوّرها ، وأجتهد كي تُبدّل السيئ بالجيد .يجب أن ترى الحسن فيما حولك وتُركّز عليه ، وتُحاول أن تغضّ الطرف عن السيء ، فليس هناك كمال بشري إلا فيما ندر.

-إنّ الصوت المُرتفع يُتعبني ، أبي يصرخ دائماً ، وأنا أخاف من صوته سيّدي.

-سيتغير شعورك مع مرور الزمان ، ولكن تعلّم من هذا الدرس أنّ الصوت الهادئ مفتاح القلوب ، بينما الصوت المرتفع يُنفّر القلوب ويُتعب الروح. إسمع هذه القصة بُنيّ:

"يُحكى أنّ حكيماً في قديم الزمان راح في زيارة إلى ضفة النهر مع بعض طلابه ، وهناك رأى بعض الشبان يصرخون في غضب وحِدّة ، فالتفتَ مُبتسماً إلى أحد طلابه وسأله" :بُنيّ ، لماذا يصرخ الناس وترتفع أصواتهم عن الغضب ؟."

فكّر الطالب برهة من الزمن وقال" :رُبّما يا مُعلّمي لأنهم يفقدون هدوءهم ، وعندما يذهب الهدوء عنهم تعلو أصواتهم."

ردّ الحكيم على الطالب وقال" :ولكن لمَ عليك أن تصرخ في حين أنّ الشخص الذي تتحدّث إليه قريبٌ منك ؟ ألا يُمكن أن تُحاوره بصورة أفضل ؟."

لم يكن لدي الطالب أيّ إجابات أُخرى ، فصمت وعاد إلى الوراء تاركاً دور الإجابة إلى واحد غيره.

بالفعل قدّم باقي الطلاب إجابات أُخرى ، ولكنهم لم يُقنعوا الحكيم بها.

طلب منهم الجلوس وقال لهم" :إنّ الغضب هو سلوك سلبيّ ، وخاصة إن تمّ التعبير عنه على هيئة صراخ ، وعندما يغضب شخصان من بعضهما يتباعد قلباهما مسافات كبيرة ، فيظنان أن ارتفاع الصوت قد يُوصل الفكرة إلى الآخر بطريقة أفضل ، وبذلك يُغطيان تلك المسافة الشاسعة بين القلبين ، وكلّما تباعد القلبان ، ازداد ارتفاع الصوت وحِدته ، وعلى العكس ، عندما يُحبّ الواحد الآخر ، يكون حديثهما في غاية الرقة والعذوبة ، ذلك لأنّ القلبين قريبان جداً ، ولا داعي إلى الصوت المُرتفع في حضرة القلوب القريبة."

نظر الحكيم إلى طلابه وقال" :من أجل ذلك ، عندما يدور بينكم نقاش ما ، لا تدعوا قلوبكم تتنافر ، ولا تتفوّهوا بكلمات من شأنها أن تُبعد المسافات بين قلوبكم ، وإلا سيأتي ذلك اليوم الذي تتسع فيه تلك المسافة بين القلوب إلى درجة لن يكون هناك طريق عودة."

سمع الصغير القصة واستخلص منها عبرة لازمته حتى أصبح شاباً ، أنّ القلوب إذا ما تآلفت بات حديثها أكثر عذوبة ورقة ، وأنّ نفورها يعني أنّ الصوت سيعلو ويعلو.

لقد علِم أنّ والده بعيد القلب عن أمه ، ولن يخفض صوته مادام قلبه ليس قريباً من قلبها ، فلن يُجادل ، بل سيُحاول أن يُقرّب القلوب إلى بعضها حتى تُصبح الأصوات أقلّ حدة وإخافة.

بيد أنّ ما حدث في حقيقة الأمر ، أنّ برنامج الصراخ والصوت المرتفع كان الصفة التي تُميّز نقاشاتهم الأسرية ، وكانت الأصوات تعلو عند أتفه الأمور إلى درجة يسمع بها الجيران ، الذين سمعوا الكثير من الحوارات في البيت ، وكم من مرة طرق الناس عليهم الباب وهم يظنّون أنّ مصيبة قد وقعت نتيجة وجود الصراخ والأصوات العالية.

لقد سرى البرنامج في كيان أفراد الأسرة ولم ينتبه له أحد إلا هادي ، الذي لم يستطع أن يُحرّك ساكناً أمام اعتداد أفراد الأسرة برأيهم ، وأنّ سلوكهم هذا صائب ولن يتغيّر.

هناك الكثير من البرامج الوراثية التي تنتقل إلى الإنسان من والديه خصوصاً ومن البيئة المحيطة ، ومن أجداده حتى ، يصعب التعامل معها لاحقاً عند النضوج .قد يتآزر برنامج مُعين من الأب مع البرنامج نفسه من الأم فيكون احتمالية أن يتفعّل هذا البرنامج عند الولد قوياً .فصفة الحقد مثلاً من الوالدين كليهما ، تجعل امكانية أن يكون الطفل حقوداً كبيرة جداً ، ويبقى مفتاح تشغيل هذا البرنامج موجوداً عند الطفل فينضج ويكبر وهو يحمل البرنامج معه ، فإذا ما شغل هذا البرنامج المعلوماتي فسيدخل الحقد إلى حياته بقوة ، ولا سيما أنّ جذوره قد تمتدّ إلى عشرات السنين.

قد تتعاكس البرامج من الوالدين ، فيُخفف برنامج التسامح من أحدهما برنامج الحقد من الآخر ، وقد يُلغيه أحياناً ، وتعتمد الأمور هنا على قوة عمل أحد

الوالدين الذي يحمل برنامج التسامح ومدى تأثيره على الطفل.

قد تكون البرامج التي يحملها الإنسان ايجابية أو سلبية ، فنرى برنامج الاستياء هو المُسيطر على عائلة من الجدّ مثلاً ، بينما نرى برنامج الرضا والتقبل مُسيطراً في عائلة أُخرى من الجدة مثلاً.

قد يتأثر أطفال العائلة بالبرامج على نحو مختلف حسب امكانياتهم المعنوية والروحية ، ويمتلك الناس والبيئة تأثيراً كبيراً على تفعيل البرامج المعلوماتية الوراثية عند الإنسان.

رُبّما يُؤدي البرنامج إلى مواقف عكسه في الحياة تماماً ، فقد حمل هادي أول برنامج من أمه التي زرعَت في داخله أنّ المرأة يجب أن تكون مُتمردة على عكس ما هي عليه من الخنوع والاستسلام وقلة الحيلة ، فأصبح يرى أنّ التمرّد هو أسلوب حياة يُعطي الواحد منا حقوقه التي قد يسلبها البعض منه.

لقد بدأ يبحث فيما بعد عندما أصبح شاباً عن فتاة تتمتع بصفة التمرّد دون وعي منه ، بيد أنّ التعامل مع برنامج المرأة المتمردة ، تفاعل مع برنامج الرجل الشرقي الذي لا يُناقش أبداً والذي ورثه عن أبيه ، فمضَت الأمور في طريق مُعاكس ، فبدل أن يُقدّر عالياً اجتهاد زوجته من أجل نيل ما تُريد ، راح يُكسّر كلّ سفنها ، ويرميها بسهام من نار ، وبدأ يُكرر ما كان يفعله أبوه مع أمه !سنوات من العذاب عاشها بعد أن تزوج من فتاة أحلامه التي لم يعرف كيف يتعامل مع روحها الطاهرة وشخصيتها الواثقة وإمكانياتها العالية .لقد بقيا في حروب مستمرة أعواماً طويلة ، وعزز النزاع ذلك البرنامج الموجود عند الزوجة عن ضرورة أن تتحكّم وتُسيطر على الأسرة ، وأنه لا مانع من أن تكون القيادة للمرأة ، وخاصة أنها القائد في عملها سنوات طويلة ، ونظرتها إلى أنّ القوة يجب أن تكون حليفاً

للمرأة ، ولن يخدمها الضعف ولا سيما أنها في مُجتمع يُقدّس الذكور.

إنّ البرامج المعلوماتية موجودة عند كلّ إنسان وقد تمرّ عبره إلى الأجيال التي بعده دون أن تتفعّل في حياته ، وقد يقوم بتفعيلها وتعزيزها ويُضيف عليها أشياء ، وقد يُضعف من تأثيرها السلبي .تبقى خاصية تفعيل البرامج في حياة الإنسان مُرتبطة بأخلاقه وسلوكياته ووعيه ودرجة نضوجه الروحي.

هناك من الناس من يرتقي إلى درجة يُصبح فيها قادراً على محو والغاء البرامج التي ورثها في حياته ، وبالتالي تتوقّف عنده ولا يُورثها إلى أبنائه ، ولكنّ هذا الأمر نادر بين الناس ، وتبقى القاعدة المنتشرة هي أنّ الناس يقومون بتفعيل البرامج التي ورثوها ، بل ويضيفون عليها صفات سلبية أخرى وينقلونها إلى أبنائهم.

لقد أصبح هادي فما بعد يكره المرأة المظلومة ، فلماذا يجب أن تكون مظلومة بينما هي العنصر الأهمّ في الأسرة ؟ يجب عليها ألا تسمح لأحد بظلمها ، ويجب في الوقت ذاته ألا تلعب دور الضحية ، ممّا يُؤدي إلى ظلمها لاحقاً على نحو مؤكّد .بين هذه التناقضات تشكلت علاقة الصغير المتناقضة مع النساء ، وطريقة تعامله معهنّ!

لقد تعلّم هادي لاحقاً من تجربته مع فتاة أحلامه وزوجته المتمردة ، أنّ كل شيء في الحياة يُمكن أن يكون له مفتاح ، ولكلّ مشكلة حل ، وأنّ البرامج المتوارثة لها طريقان :الأول أن نستسلم لها ونعزز بذلك من تأثيرها على حياتنا ، وانتقالها عبر الأجيال ، والثاني أن نُواجهها ونعمل على حلها وأن تمشي حياتنا عكس تيارها.

لقد راقبَت تلك المتمردة البرامج المتوارثة في العائلة ، وحللَت سلوك أفراد

الأسرة بعقل راجح ، وأخبرته عمّا جال في خلدها ، وكانت هي أول مَن أخبره عن البرامج المُتوارثة في عائلته ، وأنّ الأولاد كانوا يقعون واحداً تلو الآخر تحت تأثيرها الخطير مرة تلو الأُخرى ، كان يعرف أنها على حقّ ، ولكنه لم يكن يُخبرها أنها على حقّ ، هذا السلوك في التقليل من شأن المرأة الناضجة ، عززه برنامج "أنا الأكثر فهماً وإدراكاً "الموجود عنده ، وكم هي الحياة صعبة بين زوجين يحملان برامجهما السلبية المتنوعة ، ويتصارعان كي يُثبتا أنّ برنامجهما السلبي هو الأصح !وهو الأفضل !وأنه يجب أن يكون له السيطرة!

لولا رعاية الله وحرص الشيخ على أن يبقى الطفل في حماية أهل الله وأوليائه لكان الصبي انزلق في مهاوي اليأس والخوف والفقر ، ولكنّ الله سلّم هذا الصبي لأنّ له مهمّة يجب أن يقوم بها مع كلّ ما يتمتع به من إمكانيات كلامية ، وقدرات فهم وإدراك عالية.

هادي في زمن مضطرب

هذا هو أنا هادي أكتبُ قصّتي مُحاولاً انتشال ذاتي من رواسب عشر سنين كانت سبباً فيما صرتُ إليه عندما أصبحت شاباً.

لا أُخفي أنني في تلك الأيام لم أقوَ على مُقاومة فكرة فراق والدتي أو أحد أفراد أسرتي ، إلا أنّ بريقاً من الأمل عاد لينشلني من دوامة كادت تُودي بي وبكلّ ما مُنحت من فكر يسبق عمري.

إنه شيخي الجليل ، شيخي السري ، عاد ليزورني في حلمي وأخبرني بكلماته الرقيقة أنّ القلق والخوف لن يُجديا نفعاً إذا ما حلّت المحنة .إترك كلّ شيء للعناية الربانية وسلّم تسلم .صحيح ، ماذا عساي أن أفعل إن كان حكم الله قد حلّ ونزل؟ إنّ كل ما أفعله ما هو إلا مضيعة للوقت وإرهاق للجسد والروح ، وحجب للنفس عن الفرص الرائعة التي يُمكن أن تُمنح لي من قلب المحنة. أدركتُ أنّ تعلقاتي تأتي بالمحن إلى حياتي ، ويجب أن ألجأ إلى جناب الله كي أفكّ وثاقي منها ، وأنتهي منها.

"شيخي أراني قد بدأت اتبلّد .إنّ مشاعري غارقة في فكرة هل أنا مُتعلّق بشيء؟ بدأتُ أخاف أن أُحبّ شيئاً ، أُحبّ أحداً ، فقد أُحبّ شجرة فتذبل ، أنا غير قادر على تبادل الحب معها .لم أعُد أسمح لقلبي أن يبتهج من رؤية الجمال خوفاً من أن أتعلّق به ثمّ أفقده."

"الحُبّ هو أساس هذا الكون ، وقد أودع الله في دواخلنا نسائم الحُبّ النقي

حتى تُشعرنا بنعماء الحياة ، أحبّ يا بُنيّ كلّ ما يقع عليه ناظرك ، ولكن من خلال الله ، يستمرّ معك ما دامت الأبدية الربانية .إعلم أنّ الأشياء مخلوقة من أجل إسعادك ، وأنّ وجودها في حياتك مرحلة ، إشعر بالامتنان لها وقدرها واشكر على وجودها ، واعلم أنك مُفارقها أو هي مفارقتك."

كلمات حفرتُها في دماغي ، وقلبي ، وكانت بوابة كبيرة أعبر من خلالها خارج حدود الحزن والقلق الذي سيطر عليّ مدة طويلة .وها أنا أعود إلى بلادي مع أسرتي يافعاً جميلاً مُتألقاً حاملاً في جعبتي أجمل الذكريات ، وأحلى أيام عمري. ربما كنتُ أظنّ أنها أحلى الأيام ، فأنا أجهل ما تحمله لي الأيام القادمة في مُجتمع مُختلف وعادات وأشخاص لم أعهد وجودهم في حياتي.

لا أُنكر أنّ تلك الأيام كانت مُحمّلة بمواقف أضافَت الكثير إلى شخصيتي ، فقد كنتُ مُجتهداً ولكنني خجول جداً ، وكان الخجل يزداد عندما أصبحتُ غير قادر على الحدّ من سخرية الأطفال في المدرسة ، كنتُ أكتفي بالحزن وأكبت في داخلي ذلك الشعور ، أُريد أن أردعهم ولكنني غير قادر ، ومع مرور الزمن ، تشكّلت تلك المشاعر على هيئة حالة ناقدة ومُستفزة للآخرين ، فقد أخذتُ دورهم لأنتقم من الجميع ثائراً على ما تعرّضتُ له ، ولم أقدر على رده في حينها ، وتفعّل برنامج جديد في داخلي قادني إلى القيادية وروح الفرد الواحد.

لم يكن من السهل أن أبدأ حياة القيادة والتميز بينما كنت قابعاً تحت نير السخرية ، كان رفاقي في المدرسة وفي الحي لا يكفّون عن إزعاجي ، فانا الطفل الخجول رقيق الملامح أبيض اللون ذهبي الشعر ، في عالم كلّه أشخاص سمر وملامح قاسية.

ولكن حدث ما كنتُ أنتظره ، أخذ أحد الصبية في الحي كرتي الجديدة ، وراح

يلعب بها مع باقي الصبية وأنا انظر إليهم بحسرة وحزن ، وكان أخي الأكبر أيضاً معهم يلعب بكرتي ، لم يكن يرفض لهم أمراً وهو يعيش غريباً عن المنطقة ، ويحسب أنّ لعبه معهم فرصة لا يُمكن أن تُعوض ، فهو أمر نادر الحدوث .وقفتُ قرب الجدار وحيداً أنظر إليهم ، فتدحرجَت الكرة إلى جانبي ، نظرتُ إليها وكأنني سمعتُ صوتها يُعاتبني" :لماذا تخليتَ عني ،"فأمسكت بها وضممتها إلى صدري ، فجاء الصبي الكبير في الحي ليأخذ الكرة ، ولكنني كنتُ لا أزال أضمّها بقوة ، وصوتها لا يزال يرنّ في أذني" :لا تتخلّ عني ،"طلب الصبي أن أُعيد الكرة إليه ، ولكنني لم أُحرّك ساكناً ، كنت جامداً في مكاني كالجدار الذي أستند عليه ، كرر طلبه بقوة أكبر" :أعِد الكرة يا هادي ، رفعتُ رأسي رافضاً ، وكنتُ لأول مرة أفعل مثل هذا التصرف في حياتي ، غضب الصبي وراح يشدّ الكرة بعنف من بين يديّ ، وأنا مُتشبث بها بقوة تفوق قوته عشرات المرات ، دُهش الصبي من قوتي ، وقال بصوت مرتفع" :أعِد الكرة وإلا ضربتك ،"لم أكن أدري ما الذي دفعني إلى التشبث بها بهذه القوة ، رُبّما صعوبة حصولي عليها ، أو رُبّما الصوت الذي خُيّل لي أنني سمعته ، بيد أني في حقيقية الأمر كنتُ أحتضنها بكلّ ما أُوتيت من قوة.

شعرت بقوة هائلة تجتاحني عندما صرخ الصبي ونادى باقي أصدقائه" :تعالوا يا أولاد ، لدينا قوة كبيرة علينا أن نهزمها معها ،"ولكنّ الصبي الكبير قام بمُحاولة أخيرة قبل أن يجتمع باقي الصبية ليُثبت لنفسه أنه قادر على أخذ الكرة بنفسه ، وعندها رفعتُ ساقي ووجهتها نحو بطنه الكبيرة ، فراح يصرخ ويتألم: "الويل لك مني أيها الأشقر ،"واستلقى على الأرض وراح يصرخ من شدة الألم. لم أكُن أُدرك أنّ ضربتي موجعة بهذا القدر.

تزاحم الصبية حولي وهم يُحاولون أخذ الكرة مني ، ولكن عبثاً ، فقد تضاعفت قوتي ورحتُ أركل الصبية بقدمي واحداً تلو الآخر ، وأراهم يرتمون على الأرض يُعانون من آلام كبيرة.

قام الصبي الكبير وقال" :ما رأيك بنزال وجهاً لوجه ؟."

فتحتُ ثغري بكلمات قليلة" :إن كنتُ أنا الفائز ستكون ضمن مجموعتي."!

ضحك الصبي الكبير وقال" :إن تمكّنتَ من هزيمتي سأكون من أتباعك."

تشكّلَت دائرة بشرية من الصبية في الحي ، ووضعتُ الكرة التي كانت ما تزل في يدي جانباً ، وبدأ النزال ، وهجم الصبي نحوي بقوة كبيرة ، فما كان مني إلا أن ابتعدتُ عن مرمى جسده فوقع على الأرض ، وأخذتُ الكرة وضربتها عليه ، فارتدت وعادت إلى جهتي ، لقد شعرتُ أنّ الكرة تُساعدني وتنتقم لنفسها ولي. بكى الصبي كثيراً عندما عجز عن الوقوف بسبب جرح أُصيب به في ركبته.

وقف الصبي الكبير ومدّ يده وقال بصوت باكٍ" :أنا أفي بوعدي ، أنا ورفاقي الآن من أتباعك."

بدأت حياة جديدة في الحي وبين الأصدقاء هناك .بدأتُ أشعر بالقوة والسيطرة على الكثير منهم ، ولم يعُد يروق لي أن أبقى تابعاً لأحد أبداً ، وبدأ برنامج القوة والسيطرة ينتشر في عالمي الصغير آنذاك ، وكان هناك شيء داخلي بقي يُناديني بعد تلك الحادثة وهو أنني لم أُخلق للعنف أبداً ، وأنّ السلام هو أساس الحياة ، ولكني بناء على ظروف الشارع لم أستمع كثيراً له.

في المستقبل ومع مرور السنين كان برنامج القيادة قد أخذ حيزاً كبيراً في حياتي ، فأنا المُعلّم الذي يتحدّث بينما يبقى الآخرون صامتين حتى أُتيح لهم

المجال بالكلام .ولم أتخلّ عن دوري القيادي يوماً ، الأمر الذي دفعني إلى التحصيل العلمي حتى أعلى درجة بعناد واصرار عجيب على أن أكون الأول ، وكنتُ دائما في قيادة الرحلات وتنظيمها ، وهذه القيادية ونزعة الأول زادت من تواجد الأنا المزيفة عندي ، ولم أنتبه إلى ذلك حتى جلستُ بين يديّ مُعلّمي الرباني الذي علّمني بالمحبة الأدب بين المُعلّم وتلميذه ، وكيف لا ينزع المرء إلى القيادة من أناه ، بل يرتقي بروحه ويسمو بها ، فتكون له القيادة الروحية.

كلّما كنتُ أتعلّم أكثر ، كانت تزيد معرفتي بتلك البرامج التي تفعّلت في داخلي ، فأنا الآن أعلم جيداً أنّ برنامج القيادة والسيطرة كان نابعاً من الرغبة في التقليل من السخرية التي كنتُ أتعرّض لها طيلة أيام طفولتي المبكرة ، وكم كان يُغيظني بعد أن حصلتُ على درجة القيادة أن أعود إلى موقف ساخر من أحد الأصدقاء أو المُقرّبين.

بعد أن كبرتُ تعلّمتُ ألا أقسو على نفسي .تركتُ الأمور تأخذ مجراها بطريقة سلسلة وآمنة ، فلا بأس أن انزعج من كلمات السخرية بين الحين والآخر إن مرَّت في يوم ما ، تعلّمتُ أنّ ما يأتيني من الغير له سبب في داخلي حتماً ، وأنني يجب أن أتعامل مع هذا السبب الداخلي كي تتغيّر مواقف الحياة ، ومواقف الناس من حولي.

هكذا أصبحَت سخرية الآخرين ، أو أيّ شيء منهم بمثابة دروس تعليمية حياتية ، يجب أن أكون ممتناً تجاهها ، هذا ما تعلمتُه لاحقاً ، ولكن بعد الكثير من المعاناة من أسلوب العصا الذي تستخدمه الحياة مع مَن يتمرّد ولا يُريد أن يفهم من أول مرة.

التعلق بالأنثى

كانت الحياة تُأرجحني وأنا لا أزال مُستيقظاً لكلّ ما يجري ، وقد حصلت لي الكثير من التغيّرات .أظنّ أنني بدأتُ في مرحلة المراهقة في عمر صغير ، وكانت مرحلة مُرهقة لأنها بدأت قبل أوانها ، وقد حدث معي في تلك السنّ الصغيرة من عمري ، أن طرق قلبي من حُبّ الأنثى.

لقد كانت مُعلّمتي في المدرسة في الصف الخامس الابتدائي ، لقد أحببتُها كثيراً ، كنتُ أحلم بها وأُفكّر فيها ، واتصرّف في حياتي وكأنها تراني ، أبتسم خفية عندما يخطر وجهها الجميل في بالي .ما أجمل الحُبّ ، يُدغدغ القلب بحنان ورقة ، مع أنه حُبّ لا مُستقبل له ولا أمل .كنتُ أنوي الزواج بها ، وأُفكّر في الارتباط معها ، ولكن كيف لطالب في المدرسة أن يتزوّج مُعلّمته ، بيد أني قررتُ حينها أن أكبر وأتعلّم حتى أعود وأتزوّجها.

كنتُ أغار أن يتحدّث معها أحد الصبية على نحو منفرد ، وأمتلأ بالحزن لو اعتنت بأحد أكثر مني ، وخصوصاً أنني المتفوّق في صفي .كنتُ أغار عليها لو كانت ثيابها جميلة أو ضيقة ، وكنتُ أُرافقها خفية وهي عائدة إلى بيتها ، أُراقب الناس من حولها ، وأحرص ألا يتعرض لها أحد بسوء .كانت محبة عالية مرتبطة مع غيرة كبيرة.

كانت أنيقة رشيقة ، وكم كان يُدهشني لون أثوابها المشرقة ، أخبرتها مرة: "مُعلّمتي ، لماذا كلّ هذه الألوان في ثيابك؟ أليس من الأفضل أن تكتفي بلون

واحد غامق يُخفي جمالك ؟."

ضحكَت المُعلّمة وطلبَت مني ألا أحشر أنفي فيما لا يخصّني ، فهي تُحبّ الألوان الجميلة ، وليست عجوزاً كي تختار الألوان الغامقة ، وتركتني مُغتاظاً وغادرَت وهي تضحك وتُتمتم ببعض الكلمات التي تُشير إلى أنني ولد مُتعصّب.

كنتُ أحاول في كلّ يوم أن ألفت نظرها ، وأُعلمها أنني شاب مُتفوّق مُحبّ للعلم والدراسة ، فكم من مرة قدّمتُ لها شروحات لقصائد الحُبّ العذري ضمن صفحات طويلة ، وأحيانا أُخرى كنتُ أُدهشها بدقة مُلاحظتي وشغفي بالمطالعة حين أُعطيها مُلخصات لكتب لا يقرأها إلا أصحاب الخبرة والاختصاص في اللغة العربية.

عرضَت المُعلّمة ذات يوم فكرة مُسابقة أدبية تربوية لطلاب المدرسة ، وكانت المسابقة لأطروحة عن الثواب والعقاب في القرآن الكريم ، وكنتُ أول من تقدّم إلى هذه المُسابقة ، فخبرتي بقصص القرآن لا يُستهان بها ، فقد كانت أول كتب حصلتُ عليها هي مجموعة قصص الأنبياء في القرآن الكريم ، بدأتُ البحث ، وزرتُ المكتبة العامة في المدينة ، والتي هناك آلاف الكتب على رفوفها ، قرأتُ كثيراً ، وبحثتُ في كلّ مُجلّد عمّا جاء به العلماء والباحثون عن ورود كلمات الثواب والعقاب ، وكيف فسّر البعض الآيات المرتبطة بالموضوع.

بقيتُ أسبوعاً كاملاً وأنا أرتاد المكتبة العامة وكان الشغف من أجل الحصول على بحث مُذهل يحثني أن أُتابع دون أن يثنيني شيء أبداً إلى درجة أنني كنتُ أنسى أن أتناول الطعام لولا أنّ أمي كانت تُجبرني على تناول بعض الطعام عند عودتي من المكتبة.

أول وقوف لي كمُحاضر كان في تلك السنة وسط حشد غفير من أساتذة

المدرسة ، ونائب وزير التعليم ، والكثير من الشخصيات البارزة ، كانت المُسابقة أكبر ممّا كنتُ أتوقّع ، وكنتُ أظنّها خاصة بطلاب مدرستنا ، ولم يخطر في بالي أنّ الصحافة والتلفاز يُغطيان هذا الحدث ، فالمسابقة كانت مُعلنة من وزارة التربية ذاتها ، وليست مجهوداً شخصياً من المُعلّمة ، ممّا جعل المسؤولية أكبر ، بيد أنّ ثقتي في بحثي جعلتني أعتلي منصة الحديث بثقة عالية ، وخاصة عندما سمعتُ عشرة طلاب من مدارس مُختلفة يُقدّمون أبحاثهم بأصوات مُرتجفة ومعلومات ضئيلة ولم يطل حديث أحسن واحد منهم أكثر من خمس وثلاثين دقيقة.

حان دوري ، فأخذتُ نفَساً عميقاً واعتليتُ المنصة بثقة عالية ، وفتحتُ دفتري وجهرتُ بصوتي ، خيّم على القاعة هدوء عجيب في أثناء حديثي ، ورأيتُ ملامح السعادة تلوح على الكثير ممّن كانوا يستمعون إلى ما أقول .طال تقديم البحث قرابة الساعة وأنا أنتقل من فكرة إلى أُخرى بأسلوب شائق ، أطرح الأسئلة وأُجيب عنها ، أسرد بعض القصص وأُعقّب عليها بأقوال العلماء .أنهيتُ مُحاضرتي وأقشعر جسدي دفعة واحدة عندما سمعتُ التصفيق وأنا أهِمّ بالنزول من على المنصة ، ورأيتُ بعض الحضور يقف تحية لي ، ورأيتُ شيخي السري بين الحضور ونور وجهه كاد أن يحجب رؤية أيّ شيء آخر.

شيخي الحبيب بين الحضور ينظر ببهجة؟ !الناس مسرورة؟ كلّ تلك الشخصيات والعلماء وقفوا من أجلي؟

شعور لن أنساه ما حييت ، كنتُ أُحاول إخفاء وجهي الذي تحوّل إلى اللون الأحمر ، والعرق يتصبب منه دون خجل ، كلّ هذا ومُعلّمتي تُسلّم على مُديرة المدرسة بسرور وكأنها تُؤكّد لها أنّ مدرستنا هي مَن فاز بالمسابقة.

نزلتُ ولا تزال أصوات الهتاف والتصفيق تعلو في الصالة ، وتوجّهَت المُعلّمة والمُديرة لشكري بحُبّ كبير ، وأمسكت المُعلّمة بيدي الباردة التي التهبت كأنها بركان ثائر ، ومضت بعد أن قالت لي أن أُحضّر نفسي من أجل استلام الجائزة.

في قرارة نفسي المغرمة كانت لمسة يدها هي الجائزة ولم أكن أحفل بأيّ شيء آخر.

منذ ذلك الوقت أصبحتُ الشخص الأكثر مصداقية في الأبحاث والعلوم ، وصرتُ أُعدّ بحثاً شهرياً لطلاب المدرسة في الثقافة العامة والرقي الفكري ، ممّا جعل مُهمتي التالية أكثر يسراً وسهولة ، فأنا مُعلّم مُستقبلي ، كنتُ على يقين من ذلك.

صديق قديم

غاب شيخي عني فترة من الزمن ، كنتُ أفتقده ، ولكني أحياناً كنتُ أحمد الله على غيابه ، كنتُ أُدرك أنه يعلم ما يجول في خلدي من أفكار المراهقين ، وأخجل أن يُشاهدها فيكرهني ، أو رُبّما يعاتبني ، المهم أنه كان غائباً ، ولكنه حاضر في داخلي كناقوس يدقّ كلّما أحدق بي الخطر.

كنتُ الوحيد في أسرتي الذي اعتزم على مُتابعة الدراسة ، هناك شيء من التحدي يدفعني كي أتفوّق ، وأن أكون رقماً في هذه الحياة ، أُريد أن أكون فاعلاً ، ولعلّ رواسب الطفولة تفجّرت على هيئة مقاومة ورفض وانتقاد لكلّ ما هو حولي ، ولعلّ حادثة وفاة جارتنا أُمّ حسان دفعَت بي كي أتمرّد على والدي ، ذلك الرجل المُكافح ، الشديد ، وكأنني أردتُ أن أُثبت له أنني قادر على حماية نفسي وأمي منه ، ولن يبقَ هو المُثقف الوحيد في الأسرة ولن تمنعني قسوته من إنجاز حلمي .بيد أنّ الحقيقة أنني كنتُ نسخة عنه ، كنتُ أنتقده لأنني أشبهه ، وأخاف من قسوته إلا أنها كانت الدافع وراء وصولي لما أنا عليه ، وأدركتُ لاحقاً أنني قسوتُ عليه في أحكامي ، وتبين لي أنه صاحب حق ، وما زالت ترنّ في أذني كلماته :إنّ المُؤمن يُكمل في أيّ مجال حتى آخره ، ولا يرضى إلا أن يكون متفوّقاً .لقد كان فعلاً يُريد لي أن أكون أفضل منه ، ولكن بأسلوبه وطريقته التي لم أكن أفهمها حينها.

وصلَت بي إحدى الشجارات إلى الخروج من البيت هائماً على وجهي ، كانت عناية الله تُحيط بي في تلك الفترة الحرجة من حياتي ، والتي كانت كفيلة كي

تزجني بين أحضان الخطيئة والفجور ، كانت الرغبة عارمة لديّ والمال قليل ، وسوء الفهم يُحيط بي من كلّ مكان .إلى أي مكان آوي ؟

بيد أنّ الله كان يحميني مما يشتهيه الشباب ، كانت المأساة أكبر في داخلي من أن أزيدها بالمعصية .كنتُ بالكاد مُتفاهماً مع الاله ، وفي داخلي آلاف الاسئلة عن الوضع المُزري الذي أنا فيه .كنت أتهم الإله في نهاية سلسلة الاتهامات لكل مَن وما يُحيط بي .كنتُ ألوم كلّ مَن حولي ، وكنتُ مُستاء من كلّ شيء.

لقد لازمني بعد ذلك شعور أنني مظلوم ، وانتابتني مشاعر قاسية من الاستياء ، وقد حفّزت الالتهاب الرئوي والحساسية عندي ، كما هو الحال في مُعظم الأمراض المرتبطة مع المشاعر السلبية والتفكير السلبي في جذورها .

تحت أمطار الشتاء المنهمرة ، مشيتُ طويلاً باحثاً عن مكان أبيت فيه ، كانت حبات المطر تُخفي دموعي التي كانت تنهمر بشدة على وجهي البائس.

خطر ببالي أن أُسافر إلى البحر ، وكان عليّ أن أُسافر ليلاً كي أنام في الحافلة.

كنتُ أبحث عن صديق أبوح له بما يعتلج في صدري ، ولكن كيف لي أن أحكي عن والدي وشجاراتنا أمام أحد !لم أشأ أن أُشوّه صورة والدي أمام أصحابي ، ولا سيّما أنّ هذه المشكلة ستمرّ كما مرّت المشكلات السابقة ، ونعود إلى سابق عهدنا ، أصدقاء وأحبة.

نظرتُ إلى ما يحتويه جيبي من نقود ، وكانت قليلة ولكنها كفيلة أن تأخذني إلى صديق لن يبوح بسري ، سأرمي في جوفه كلّ ما يُتعبني دون أيّ خوف أو قلق.

اضطررتُ إلى ركوب حافلة قديمة حسب ما كنتُ أحمل من المال ، وكانت الرحلة في حافلة قديمة صعبة جداً وسط عاصفة قوية تعصف بالبلاد ، كانت ترتعد الحافلة كالمُصاب بالبرد.

كانت الأمطار تتسلل عبر النوافذ المكسورة ، وتبللت سترتي وغرقت الحافلة بالماء وكأننا في قارب يغرق ، كان الكلّ جالساً يترقّب بخوف أن تنجرف الحافلة إلى الوادي.

عندما كنتُ صغيراً ، كان المطر عند شاطئ البحر يعني لي الكثير ، كنتُ أركض حافي القدمين فوق الرمال ، وأتراشق الأمطار المُتجمّعة في كلّ مكان مع أخي وأصدقائي.

لم يكُن هناك أجمل من الماء المُنهمر من السماء عندما يلتقي مع مياه البحر ، يا له من صوت مُدهش يُشبه وشوشة الأحبة في ليالي السمر المُقمرة.

بيد أني الآن ، أصبحتُ أمقتُ صوت المطر ، الذي ارتبط عندي بالتشرد والبرد والمشي الطويل دون هدى إثر الشجارات القاسية بيني وبين أفراد أسرتي ، وتحديداً والدي.

بقيتُ فترة طويلة بعد ذلك أشعر أنّ المطر يُؤجج في داخلي مشاعر سيئة حزينة قاتمة ، ويُوقظ ذكريات دفنتُها في الماضي البعيد.

لم أكن أكترث بالنتيجة ، فليحدث ما يحدث ، لستُ قلقلاً من شيء قط ، فكلّ ما كنتُ أُريده أن أصل إلى صديقي ، وأبوح له بأسراري ، وإن لم أصل سيموت سرّي وألمي في داخلي.

-صديقي ، جئتُ إليك أشكو سوء حالي.

علا صوت الموج بقوة أرعدت قلبي.

-لماذا أنت غاضب يا صاحبي ، هل أنت غاضب مني؟ أنسيت كم كُنا سعداء في الماضي؟ هل نسيتَ مُغامراتي في جوفك الطاهر؟ إسمعني !أُريد أن أحكي لك ألمي.

بيد أنّ البحر كان هائجاً مُخيفاً ، وزاد البرق والرعد الأمر رهبة ، وتغيّر صوت المطر ولم يعُد كما كنتُ أعهده عندما يلتقي مع البحر ، لقد تغيّر كل شيء ، حتى أنت أيها البحر قد تغيّرت!

جلستُ مُنهكاً على رماله التي أصبحت طيناً ، ورحتُ أبكي وأبكي وصوت البحر الهدار يعلو كمن يصرخ في وجهي.

في غمره حزني وبكائي المرير ، شعرتُ بيد تحنو عليّ ، إنها يد ما زلتُ أذكر حتى الآن أثر وقوعها على ظهري .كانت كالبلسم الشافي ، كالنور الذي يتسرب عبر الشرايين فيُعيد الطهر إلى كلّ شيء.

رفعتُ رأسي وإذا بالشيخ يقف خلفي ويده لا تزال على ظهري كدفء الشمس.

-قم يا بُنيّ ، البحر لا يُريد أن يستمع إلى أحد اليوم ، فهو يعكس دائماً أحوال البشر.

-لطالما سمعني ، وكان يُحبّني.

أمسك الشيخ بيدي وأوينا معاً تحت مظلة مُهترئة قرب الشاطئ.

-عليك أن تشكو يا بُنيّ إلى مَن لا يتبدل حاله ، ومن لا يسهو ولا ينام ، إلى مَن إذا ما طلبتَ منه الحب أعطاك ، ضَع همّك بين يديه .سلّم شغاف قلبك لمن لا يمسّه تقلّب الفصول ولا تغيّر الأيام.

-أشعر بالتشرّد ، أنا بائسٌ سيّدي.

-إنّ التشرّد ليس أن تبقى خارج بيتك دون مأوى ، بل التشرّد الحقيقي أن لا تجد داخلك المأوى ، اذا صلح الباطن صلح كلّ شيء.

-أبي يقسو عليّ!

-لن تدوم هذه الأيام أبداً ، ستُصبح أباً يوماً ، وستعلم أنّ ما فعله كان في صالحك .إنّ رفض الوالد وبعض تصرفاته القاسية نابعة من حرصة الشديد ، ولكنّ لغة الحوار تختلف من جيل إلى جيل .إنّ وعيك قادر على استيعاب ثورة غضبه ، لا تدع الغضب والشجار يسلبك حالك مع الله.

سلّم تسلم

كانت أيام المراهقة والطرد من البيت ، والتشرّد في الشوارع ، مع القروش القليلة ، والعمل والتعب كي أُنفق على نفسي أيماً قاسية ، ما زلتُ أتذكّرها حتى الآن ، بيد أنها علمتني الكثير وأضافت الكثير إلى شخصيتي.

تلك الذكريات لم تعُد مُؤلمة الآن بعد أن تخلّصتُ من الحالة المرضية التي لازمتني سنوات طويلة ، عندما أدركتُ أنني كنتُ الذي يزجّ بي في أحضان القلق والخوف والمشاعر السلبية ، بل رُبّما كنتُ أستمتع بكوني ضحية.

كانت كلّ خلافاتي مع أبي والآخرين تدور حول أنني مغلوب على أمري ، وأنّ ما يدور حولي يدفعني إلى رفض الواقع والتمرد ، ولكن كلّما كنتُ أرفض الواقع كانت مخالبه تغرز في جسدي أكثر وتُريني الأسوأ.

لم أكن أعلم حينها أنّ التجارب المريرة الكثيرة ستُوصلني إلى حالة السلام في لحظة قبول الواقع ، والنظر إليه على أنه أمرٌ قائم لا محالة ، وأنّ رفضي له يجلب التعاسة ، بينما يكون قبولي له بوابة أنتقلُ من خلالها إلى مرحلة جديدة أكثر إشراقاً ووضوحاً ، قد تكون المراحل الجديدة قاسية وذات أعباء ثقيلة ، ولكنّ قبولي للأمر على أنه درس يُعلمني ويُرقيني ، يُحوّل المحنة إلى منحة ، ويزودني بالزاد في كلّ محطة ، ويُقويني كي أصل إلى المحطة التالية على الطريق.

كنتُ أفكر متى سينتهي هذا العذاب ، أليس في حياتنا إلا العذاب!

قيل لي إنّ الدنيا دار ابتلاء ، وليست من أجل السعادة ، وأنها دار الحزن والمصائب ، وأنّ الفرح والبهجة لن يكون إلا في الآخرة.

نشأتُ وأنا أرى أنّ هذا الوضع القائم ليس إلا تأكيداً على أني مُوفّق ، فالمُؤمن مُمتحن.

اثلجت صدري تلك الكلمات في ذلك الوقت ، وكم من مرة صار البكاء رفيق صلاتي ، والحزن علامتي المميزة ، والنوح سلوى النفس ، فأنا في دار البلوى.

في احدى مرات تشردي ، طرقتُ أبواب عدة ، ولكنها أُوصدت ، عدا بيت الله ، دخلتُ وأنا على يقين أنّ أحداً لن يستقبل شاباً يافعاً مُبلل الثياب شاحب الوجه ، والوحل يملأ حذاءه المثقوب.

كان في فناء المسجد رجل يجلس في المحراب يقرأ القرآن الكريم ، كنتُ أرغب في بعض الدفء ، فاقتربتُ منه ببطء أتطلّع إلى كلمة تحنو عليّ ، وسرعان ما أحسّ الشيخ بقدوم شخص إلى المسجد في وقت لا صلاة فيه ، تنهّد وتابع تلاوة القرآن.

جلستُ على مقربة منه وبدأتُ أشعر بالسكينة ، وأرخيتُ رأسي على الجدار ، بينما كان صوته كالمُخدّر يسري في جسدي ، ودخلتُ في نوم عميق.

لم تتجاوز فترة النوم عشر دقائق ، ولكنها كانت كمدة ليلة كاملة.

-هل أنت جائع يا بُنيّ ؟

فتحتُ عينيي المُتعبتين ، فرأيتُ الشيخ الجليل يبتسم لي بحُبّ ويُربّت على كتفي بعطف كاد يُبكيني.

-نعم يا سيّدي ، أنا جائع.

مدّ الشيخ يده كي يُمسك بيدي ، ثمّ سحبني بهمة الشباب وربّت بقوة على ظهري ، وشعرتُ بتيار قوي يخترق جسدي ، وحرارة عالية من رأسي حتى أخمص قدمي .شعرتُ أنّ ملابسي قد جفَّت وأنّ عروقي أصابها تدفّق غير مسبوق.

أخذني ذلك الشيخ الجليل إلى غرفته في باحة المسجد ، كان دائم الاعتكاف في ذلك المكان .قدّم لي رغيفاً وحساءً وبعض حبات التمر .كنتُ في العادة أُقبل على تناول الطعام بنهم ، وأتناول كميات لا بأس بها ولا أشعر بالشبع .في ذلك اليوم ، كانت حبات التمر والحساء الساخن كوجبة دسمة ، وأحسست بالشبع والراحة منها على نحو لم أعهده وخصوصاً أنه قال لي قبل الأكل" :كل بسم الله الشافي."

-سيّدي أضفتني وأكرمتني ، أكرمك الله وزادك من فضله.

إبتسم الشيخ جميل الوجه وطلب مني أن أبيت الليلة في غرفته إن لم يكن لديّ مكان يُضيفني في هذا اليوم البارد.

كان عرضه دون شكّ بمثابة إنقاذ لي في هذه الليلة القاسية حيث لا مكان يُمكن أن ألجأ إليه في ساعة كهذه.

-كنتُ أنوي السفر لولا عظيم فضلك سيّدي.

-هذا بيت الله ، لن تُسافر ، ستبقى هنا.

إبتسم بمحبة ألهبت وحرّكت شيئاً كدتُ أنساه من مفردات كلماتي .تذكّرتُ شيخي السريّ.

جلسنا في تلك الليلة نتحدّث عن أشياء كثيرة ، وكانت كلماته كالبلسم وإجاباته العميقة أثلجت صدري الحانق ، وخفَّت وتيرة الضغط الذي كنتُ أشعر

به.

-لمَ يا سيّدي نعجز عن البوح بما يجول في خواطرنا أحياناً ؟

-لأنّ ما في الخاطر أعمق من أن تُدركه أدمغتنا مُتواضعة الإدراك .وماذا نفعل بأفكار مُتزاحمة تكاد أن تكون جداراً بيننا وبين الواقع ؟

إرمها من رأسك ، أفرِغ كأسك حتى نملأها.

ضحكتُ بصوت خافت ، ونظرتُ إليه مُستغرباً!

وأنّى لي أن أُفرِغ رأسي وكأسي ، وكلّ ما يُحيط بي يدعوني أن أحمل كلّ شيء في إناء جمجمتي المُتصدعة!

هزّ الشيخ رأسه و قال بلطف" :دع عنك الأغيار ، واستعِن بالله القوي الجبار."

لم أكن قد اختبرتُ بعد ما تعنيه كلمة صاعقة كهربائية تسري في جسد الإنسان ، بيد أنّ تلك العبارة فعلَت فعل الصاعقة.

شعرتُ بتيار قويّ شديد حرّك كلّ خلية في جسدي ، ورحتُ أتأمّل وجه الشيخ الذي أنار فجأة على نحو غريب ، وكأنّ نوراً أخفاه عني قد ظهر كي يُنير المكان.

أحسّ الشيخ بدهشتي فأشاح بوجه مُوقناً أنّ وجهه قد أنار ، وخجل أن يراه شاب مثلي.

عجزتُ عن الكلام ، بينما استأذن الشيخ وغادر الغرفة حتى أنام ، ولا تزال صورة الأنوار التي أشرقت في وجه الشيخ تجول في المكان.

استلقيت حيث كنت جالساً ودخلت في نوم عميق ، عميق.

كان شيخي السريّ قد غاب عني منذ سنوات طويلة ، وكنتُ قد احتجبتُ عنه كيلا يرى ما حلّ بي من سوء ، وأفكار صبيانية في فترة المراهقة .بيد أنه في تلك الليلة زارني شيخي الحبيب.

بكيتُ طويلاً بين ذراعيه ، وكان مضيء الوجه ، باسم الثغر ، ممشوق القامة ، هادئ النظرة.

-سيّدي لقد تعبتُ !أُريد أن أرتاح.

-سلِّم تسلم.

-إنني مُستسلم سيّدي!

-سلِّم تسلم .سلِّم تسلم.

أيقظني آذان الفجر بصوت الشيخ الجليل الجميل الأمر الذي أطرب روحي ، فأسرعتُ كي ألتحق بالمُصلّين .كانت عودة شيخي إليّ بمثابة عودة الروح إلى جسدي ، فقد كدتُ أجزم أنه غادر دونما عودة .بيد أنّ الله لن يتركني لما أنا فيه. لقد عاد شيخي ، وعادت دقات قلبي تُنشد من جديد ومشاعر الحُبّ تغمره .لا يزال هناك مُتسع من الوقت من أجل استدراك ما مضى.

لقد أصبحت صلاة الفجر أجمل أوقات حياتي .منذ ذلك الصباح أصبحَت تلك الفترة من النهار تعني لي النور والبركة ، وأصبح فواتها يعني أن يومي لا خير فيه.

جلستُ مع مجموعة من الرجال قرب الشيخ الجليل نستمع ونُردد أذكار الصباح ، وتبعها درس جميل يحمل عنوان"سلِّم تسلم."

كان كلّ ما مرّ في تلك الليلة يُشير إلى التسليم إلى قضاء الله وأوامره ، وأنّني

سأكون بخير طالما كنتُ في كنف الله ، بينما ستجلب لي المُعاندة والسخط على حكم الله العذاب والتعب.

ارمِ يا بُنيّ أحمالك .أفرغ كأسك ، وسلِّم أمرك لله ، تسلم من جميع الكروب. دَع عنك الحكم على الآخرين وانظُر لنفسك .إكسر أشواكك وحطم قيودك ، وراقب أحوالك ، فلن تنال الخير إن نسيتَ نفسك التي بين جنبيك ، ونظرتَ إلى عيوب الآخرين.

ما أحسن ما سمعته .ما أعذب صوت الشيخ وهو ينطق بلطف المحبين ويلقي ببلاغة العارفين" :إنّ محبة الإله هي الدواء من كل الأسقام ، لا شيء في الكون فوق محبة الله ، فلماذا يُعاني الإنسان ويتوه عن هذا الحُبّ؟ ،"وختم الشيخ كلامه بقول لمولانا الرومي:

-سأل سائل :ما هو الحُبّ؟

-فجاءه الرد" :ستعرف عندما تضيع فيه ، فالأفلاك التي تدور في سماواتها إنما تُحرّكها أمواج الحُبّ ولولا الحُبّ لكانت كالجليد تت.جمّد."

لم يسمح لي الشيخ بمغادرة بيته قبل تناول الفطور معاً ، وكان منذ ليلة أمس لم يسألني عن اسمي وكأنه من المُعيب أن يسألني وأنا في حاجة إلى مكان أبيت فيه ، ولكنه أخيراً سألني :ما اسمكَ يا بُنيّ؟

-أنا"هادي صلاح الدين."

سألني وعلى وجهه علامة استغراب" :مَن جدك يا بُنيّ؟."

-عبد الله صلاح الدين.

إبتسم الشيخ وأطبق جفنيه وراح يُردد" :الله ، الله ، الله."

ثمّ نظر إليّ وقال بلهجة آمرة لطيفة" :عُد إلى بيتك يا بُنيّ .لك من الخير الكثير ، لا تتعجّل ولا تتململ ، وانتظر العطايا من ربّ كريم .رحم الله جدّك العارف بالله ، إبحث عن مُعلّمك وترقّب لحظة الفتح."

لن أخجل من القول لقد كان فيما قاله ذلك الشيخ الجليل كلمات لم أفهم منها الكثير ، رُبّما كان يُحدّث شيئاً آخر فيّ ، ورُبّما كان يتكلّم مع شخصي المستقبلي.

شعرتُ كأنه يتحدث معي وليس معي ، شعرتُ كأنه يتحدّث مع شيء يخصّني ولكنه أعلى مني في هذه المرحلة ، سمعتُ كلماته وتناولتُ بضع لقيمات ، وقد كان ينظر إليّ بفرح شديد ، وكأنه عثر على شيء جميل ، وكان يُردد عبارات لطيفة" :بالعافية يا بُنيّ ، خير ونور ، اللهم عجّل ولا تُؤجّل."

سمح لي أخيراً بمُغادرة المسجد شريطة أن أعود إلى البيت ، وأخذ عهداً عليّ ألا أخرج من البيت مُتذمراً ومُتشاجراً.

قال" :لا تنم خارج بيتك ، أقصُد بيت الله إن شعرت بضيق في صدرك ، فصحبة السوء أودت بكثير من الشباب إلى المهالك والضياع ."اعتزمتُ أن يكون هذا الشيخ مُعلّمي الجديد.

مضيتُ مُحمّلاً بأجمل الكلمات وروحي تُغرّد فرحاً ، وعاد قلبي منشرحاً من جديد ، وحلّقت روحي حينما خفق الفؤاد.

تعلق بالمعلم

كان والدي طموحاً ومُحباً للعلم، وعلى الرغم من قسوته، إلا أنه كان يدفعني ولو بطرق صارمة كي أُحصّل تعليمي وأُصبح ناجحاً، كان يستشيرني في كلّ كبيرة وصغيرة، لعلمه أنني أكثر وعياً من أخوتي الأكبر سناً.

فرح كثيراً عندما أخبرته عن عزمي على الالتحاق على نحو دوري وثابت بالمسجد، فقدّم لي بعض النصائح المُتعلقة بالحذر وأنّ كلّ شيء يجب أن يُوضع في ميزان الشرع.

في المسجد، كان الشيخ لطيفاً مُحبّاً سمحاً، يدخل كلامه مباشرة إلى القلب، وبعد مدة وجيزة رأيتُ نفسي مُتعلقاً به على نحو كبير، فصار من المُزعج أن أراه لا يُناديني ويتحدّث إليّ على نحو خاص، وكم أزعجني ذلك الشاب الجديد الذي أتي من بلد آخر، كي يحتل مكاناً عند الشيخ، كادت الغيرة أن تحرقني، تماماً كما كانت تفعل بي مع طلاب المدرسة والآنسة هناك.

شعر الشيخ بغيرتي من الشاب الجديد، وراح يدبر بعض التدابير لجعلي اعمل معه في تنظيم حفلات المسجد الصيفية، وترتيب قوائم الطلاب الجدد، ولكنني لم أكُن أُعير ذلك اهتماماً، إذ كنتُ أشتاط غضباً وغيظاً، عندما يحظى الشاب الجديد بعناية خاصة من الشيخ .لقد تحكّمت بي المشاعر السلبية كثيراً، ولم يكن من السهل أن اكبح جماحها أبداً .إلى أن جاء يوم تشاجرتُ مع الشاب الجديد خارج المسجد ونعتّهُ بالشاب الوصولي، وأنه يُريد أن يأخذ الشيخ من

طلابه ، فاشتكى الشاب إلى الشيخ سوء تصرفي.

ناداني الشيخ بعد جلسة الذكر وقال لي:

-بُنيّ ، من يملك قلبنا ؟

-الله يا سيّدي.

-لمن خواتيم اعمالنا ؟

-لله يا سيّدي.

-مَن يرى سرائرنا ؟

-الله يا سيّدي.

-ماذا إن كان في القلب غيره ؟

-إنّ الله تعالى يغار ، ولا يُحبّ أن يكون في القلب غيره.

أخرجني من قلبك إذاً ، وناظرني بعين مختلفة ، أنا مخلوق ولست بخالق ، وأنا أتعلّم ولستُ بعالم ، وأنا خطاء ولست معصوماً ، تعلّق بمَن هو أهل لذلك.

-لكنني احبك في الله يا سيّدي ، فماذا أفعل بمشاعر الودّ التي أُكنّها لك ؟ أُريدك لي وحدي ، لا أُريد أن يُشاركني فيك أحد.

-هل قلت أنك تُحبّني في الله ؟

-أجل أُحبّك في الله.

-إنّ كلامك غير صحيح ، لو أحببتني في الله ، لرأيت الله قبل أن تراني ، وكان الله هو أقصى ما تطمح إليه ، ولتنافستَ مع الشابّ الجديد في محبة الله ورضوانه ، أنا أُريدك أن تتآخى معه كي تكونا في ظلّ الرحمن في يوم العرض.

-أمرك سيّدي.

نادى الشيخ على الشابّ الجديد وأخبره أنه ينوي أن يجعلنا أخوة في الله ، وأضاف:

إنّ أخاك"رشيد "غادر بلاده بعد أن فارق والديه الحياة ، وقد تكفّل أهل الخير أن يُسددوا أقساط تحصيله العلمي ، وهو قاطن في غرفة صغيرة على نفقة أهل الخير ، كُن له أخاً وسيكون لك أخاً وعوناً.

أمسكتُ بيده والحزن على حاله يعتصر قلبي ، إنه شاب مسكين ، بينما كنتُ أحسبه لا يُغادر المسجد بغية الاستئثار بالشيخ !يا لحماقتي!

فهمتُ لاحقاً أنّ كلّ شيء محسوبٌ ومدروس ، وأنه لا شيء يأتي على نحو اعتباطي ، كلّ الأشياء مدروسة ، فلا صدفة ولا حظّ ولا طالع ، وإنما تخطيط إلهي مُسبق فيه كل الاحتمالات ، ولا يقودنا إلى أفضلها إلا الثقة بالله والأفعال الحسنة.

أخ حقيقي

سمع الجوار في الحي أصوات شجار صادر من بيتنا ، وبالطبع كنت أنا صاحب ذلك الشجار مع أبي ، لقد كنتُ أميل إلى الشجارات كي أثبت وجهة نظري وأني على حقّ!

لم أفهم إلا لاحقاً أنّني لا أستطيع التحكّم بالحياة ، بل يجب عليّ أن أسير مع تيارها الرباني ، وأنّ لكلّ أحد دروسه الحياتية الخاصة التي يجب أن يتعلّمها ، وأنّ صالح الإنسان في أن نُساعده على فهم دروسه ، وليس حتى أن نجبره على فهمها!

إنّ الصواب الذي لا شكّ فيه قد يكون ضاراً ، لو أجبرنا الإنسان عليه لأننا نحرمه من دروسه التي يجب أن يتعلّمها في الحياة.

كان عليّ أن أُوقف من تطور الشجار ، فخرجتُ من البيت أطلب الراحة بعض الوقت ، فساقتني قدماي إلى بيت"رشيد ،"لم أكن أعرف العنوان على وجه التفصيل ، ولم أهتدِ إلى البيت بعينه ، لولا أن رأيتُ"رشيد "عائداً إلى البيت يحمل صندوقاً وأكياساً كثيرة.

قلتُ في قراره نفسي" :كيف لشابّ فقير أن يبتاع كل هذه الأغراض ؟."!

رحّب"رشيد "بي كثيراً ودعاني إلى البيت الذي كان عبارة عن غرفة واحدة يكاد رأسي أن يصل إلى سقفها .فراش رقيق وغطاء واحد ، ولكنّ الأناقة والترتيب كانا عنوان غرفته.

-أهلا بك يا هادي ، سعيدٌ بقدومك.

-شكراً يا"رشيد ،"هل أُزعجك إن بقيتُ عندك حتى حلول الليل ؟

-على العكس يا أخي ، هذا بيتك.

بدأ يُخرج من الصندوق بعض الأغراض والمؤونة ، وأخبرني أنّ من تكفّلوا به يُرسلون له كلّ شهر بعض الأغراض والطعام ، وأخرج من الكيس بنطالاً وقميصاً وقال لي:

-إقبل مني هذه الهدية يا أخي.

كدتُ أبكي من سوء ظني ، وممّا قابلني به من حُسن الخلق ، فأخذتُ الهدية وشعرتُ بامتنان كبير .ثمّ أعدّ لنا وجبة ساخنة لم أذُق مثلها في حياتي.

أخبرته عن المشكلة بيني وبين أبي فقال لي:

"لو كان والدي على قيد الحياة ، لقبلتُ منه كلّ أقواله ، ولرميتُ رأسي تحت قدميه ، هكذا كنتُ أفعل في حياته .إنّ الحياة تأخذ منا الأشياء الجميلة التي نعدّها مصدر سعادتنا ، وتطلب منا البحث عن السعادة الحقيقية."

أشعل كلامه بارقة في رأسي ، فقد يقضي أبي يوماً ، وسأحزن على فراقه دون شكّ ، لكنني سأكون نادماً على سوء تعاملي معه.

عدتُ إلى البيت في المساء بعد أن قضيتُ وقتاً رائعا برفقة أخي في الله"رشيد ،"الذي لن أنسَ يوماً صنيعه وكلماته التي غيّرت حياتي منذ لحظة خروجي من بيته الأنيق.

أبي ، لقد نعته بالظالم ، بيد أنه كان مظلوماً أيضاً ، لقد أخبرتُه أنني أكرهه ، إلا أنني كنتُ أُحبّ أن أتحداه كي يظهر ما خفي من صفاتي.

فهمتُ لاحقاً أنّ أبي كان متعلقاً بالصورة المثالية التي يراها فيّ ، وخصوصاً أنني الوحيد الذي أكملتُ دراستي .كان أبي مثالاً عن الكثير من الآباء الذين يُريدون أن يتحقق الأفضل لأولادهم ، ولكنهم لا يجدون الأساليب الجيدة كي يصلوا إلى ذلك ، وخصوصاً عندما يتمرد الأولاد في مرحلة مراهقتهم.

ناهيك عن أنّ الكثير من الآباء والأمهات يُريدون الأبناء والبنات على صورهم وحسبما يرسمونه لهم ، وهم لا يُدركون أنه لكلّ إنسان في الحياة طريقه الخاص ، وأنّ وظيفة الوالدين الحقيقية في ايجاد الشيء الابداعي الذي يتميّز به طفلهم ، ثمّ وضع كافة الامكانيات المعنوية والمادية كي يصل الطفل إلى دوره الحياتي الذي يُبدع فيه.

كانت تلك الليلة آخر عهدي بالشجار مع أبي.

إلى بلاد الغربة

لقد كنتُ أظنّ أنّ كل ما مرّ معي في سنوات عمري القصيرة ، هو دهر مملوء بالتجارب والخبرات ، ولم أكن أُدرك أنّ التجارب لم تأتِ بعد .إنّ كل ما مرّ كان لعب ولهو ، طفولة ومراهقة ، وأوقات عصيبة ، كنتُ شديد الانفعال ، سريع التأثر ، دائم السخط ، سليط اللسان كما هو حال باقي أفراد الأسرة .أردتُ بشدة أن أتحرر من القيود التي أوثقتني مع تلك الأفكار في سجن رهيب.

حصلتُ على شهادة التعليم الثانوي ، وكان لا بُدّ لي من الالتحاق بالجامعة كي أُحقق ما صبت إليه نفسي ، أين أدرس وماذا أدرس ؟ أبحث عن قيمة عليا في المجتمع ، بدأت الأنا في داخلي تظهر على السطح بصورة جلية ، وكيف لا وكلّ مَن هم حولي لم يُتمّوا دراستهم ، وأنا الشاب الأنيق المتعلم المثقف النهم للقراءة والمتابعة العلمية.

لقد كنتُ صاحب الرأي السديد والكلمة النافذة.

كنتُ أشعر بالسعادة عندما قررتُ مع والدي أن أُسافر في بعثة إلى بلاد أجنبية كي أُتابع تعليمي الجامعي بعد حصولي على الثانوية العامة ، وليتني أدركتُ وقتها ما ينتظرني هناك!

كانت مريرة تلك الأوقات التي كنتُ أفكّر فيها كيف سأبتعد عن أُمّي وأبي وأسرتي ، وكان أشدّ ما يُؤرقني أنني لا أملك سوى القليل من المال حتى أصل إلى هناك.

لم أنسَ يوماً آخر كلمات والدتي قبل أن أُغادر البيت:

جرّب ما تشاء ، ولا تقرب اللواطة والمُخدرات.

وكأنها حينئذ أعطتني بطاقة خضراء كي أفعل ما أشاء إلا ما ذكرت!

أنكرتُ ما قالت وأنا اليافع ربيب المساجد المُتابع لحلقات الذكر والعبادة ، وأصدقائي جميعهم من حفظة القرآن الكريم .كيف لها أن تشكّ في تديني ؟ !بيد أنّ كل الكبت الجنسيّ تفجّر عندما ركبتُ القطار في تلك البلاد كي أصل إلى وجهتي حيث الجامعة.

تلك الشقراء الفاتنة ، ولم أحتمل أول دعوة للقبل بيني وبينها ، ونحن على متن ذلك القطار ، عناق طويل وقُبل ، وكانت أول عهدي بالنساء ، نعم أول لمسة وأول عناق وأول قبلة كانت هناك ، في ذاك القطار المزدحم الذي كان يقطع بقاعاً فائقة الجمال بين الجبال والوديان .تمنّعتُ قليلاً في بداية الأمر ، ولكنني كنت راغباً بالفعل ، ثمّ ما لبثتُ أن بكيتُ طويلاً ، وخفتُ كثيراً أن تطالني يد البغاء ، وأن تكون تباشير رحلتي الدراسية قد تحدد مسارها على نحو كامل ، رحتُ أرجو الله أن تكون هذه القصة عابرة ، وسألته التصبر والعصمة.

منحتني رحلتي إلى تلك البلاد آفاقاً ما كنتُ أحلم بها ، تعلّمتُ ما عجز دماغي الصغير عن التفكير به أصلاً ، ولكنني دفعتُ ثمناً باهظاً.

ما كان لشاب نشأ في بيئة محافظة أن يتمكّن من الصمود في بيئة غربية أصبح فيها كلّ ما حُرم عليه مُباحاً .توجّب عليّ أن أتزوج تحصيناً لنفسي ، وقابلتُ امرأة جميلة لطيفة تقربني في العمر ، وتمّ الزواج في عمر العشرين حيث لا يحلم الشباب أن يتزوجوا في مثل هذا العمر في بلادي.

عشنا معاً سنوات طويلة ورُزقنا بطفل أسمر جميل .بيد أني كنتُ في دوامة لا يعلم بها إلا الله ، فأنا شاب شرقي ، وبيد أنّ زوجتي لم تكن تُعير أمور الجنس أيّ أهمية ، كلّما رغبتُ بها نأت عني ، فتعلّقتُ بما مُنع عني ، وظهر التعلّق بالجنس في حياتي على نحو قوي.

رحتُ أعوّض حرماني الجنسي بأمور عديدة منها التفوق وتحصيل أعلى الدرجات العلمية ، وكما هي عادتي المُتطرفة ، تعلّقت بالعمل والتعلّم ، وخاصة بعد أن كانت نتيجة السنة الأولى من أسوأ سنوات حياتي الدراسية ، فأنا المجتهد الذي ما فشل يوماً ، تعرّضت للفشل الذريع في مادة كادت أن تُنهي تحصيلي الدراسي ، أعدتُ المادة ثلاث مرات وشعرتُ بخيبة الأمل ، ثمّ سرعان ما تحول الفشل إلى اجتهاد عظيم ، فليس من عادتي أن أستسلم إلى الفشل ، سأُحوّل النتيجة مئة وثمانين درجة ، وسأحصل على ما أُريد.

درستُ ليل نهار ، وأنجزتُ الجامعة بتفوّق ، وحصلتُ على منحة لإكمال الدراسات العليا ، وكنتُ أعاني من حالة فقر شديد فأنا طالب وزوجتي طالبة ولدينا مصاريف طفل يكبر.

كان عناء الغربة فظيعاً ، يزيد من كلّ المتاعب الأُخرى ، فالغربة هي أشدّ ما يُمكن أن يُعاني منه الإنسان ، وخصوصاً ذاك المُتعلق بأهله وأسرته وبلده ووطنه.

في البلاد الجديدة وخصوصاً الأجنبية هناك عادات وتقاليد مختلفة يجب أن تتأقلم وتتعايش معها وخصوصاً لمن كان مضطراً أن يمضي عمراً طويلاً في بلاد غربته.

إنّ الانخراط مع المجتمع بعاداته الجيدة والسيئة يعني ضياع الإنسان ، وعدم

التعايش يرمي بالإنسان إلى انعزال شديد عن المجتمع وهذا يزيد من معاناته ، ويجعله وحيداً في مواجهة آلام غربته التي لا تنتهي.

ضياع في هاوية الجاهلية

حاولتُ أن أجد عملاً إلى جانب دراساتي العليا ، فقد التزمتُ بأسرة ، ولا بُدّ لي أن أُقدّم لهم المعيشة الكريمة ، وأصبح العمل ضرورة حتمية ، في تلك البلاد لم أطرق باباً وفتح لي ، إلا بيع الخمور ، الأمر الذي كان مُتاحاً على نحو كبير.

أبيع المحرمات وأنا ابن رجل فاضل وجدي لأبي عارف بالله !يا لفضيحتي لو علم أبي بالأمر.

لقد انزلقتُ إلى عالم لم أكن أعلم عنه أيّ شيء ، وفعلتُ ما قالته لي أمي ، نساء وسكر وضياع وبُعد عن الدين ، ولم أقرب اللواطة والمُخدرات ، وفي آخر الليل دموع وبكاء الندم ، ثمّ في الصباح يصحو ذلك المارد في داخلي ، المتعطش للجنس والمال ، أكدُّ وأعمل وأدرس وأجتهد ، وأقضي المساء في مكافأة نفسي بين النساء والشراب في ليال حمراء طويلة تنتهي عادة بصراخ من قلب السكر والعربدة ، وعويل مُستغيث" :يا ربّ أخرجني ممّا أنا فيه."

سنتين ممّا يُسمّى بالجاهلية ، قضيتُها بين الخمر والنساء وفعل كلّ ما كان حراماً .كنتُ أتفكّر طويلا وقتها في جدي لأُمّي ، وكيف كان مُدمنا على الخمر حتى أواخر حياته ، وأبكي عندما أتذكّر أنه كان في يوم العيد يذهب إلى المسجد حيث تُقام صلاة العيد ، فيقف خارجاً بعد دخول الناس إلى المسجد ، ويُلمّع لهم أحذيتهم وهو يبكي على ذنوبه التي تمنعه من الدخول إلى المسجد ، آملاً في أن يتوب عليه ربه ، عندما يخرج الطائعون من المسجد فيرون أحذيتهم

نظيفة ، فيدعون لمن نظفها ولمّعها ، وقد كان!

لقد ترك الجدّ الخمرة قبل سنيتن من وفاته وتاب توبة نصوحاً ، ومات وهو في أعلى حالات التوبة والقبول عند الله كما يروي الكثير من الناس.

كنتُ في غمرة الأضواء والموسيقى الصاخبة وسُكر الخمرة أتضرّع إلى الله باطنياً ألا يُميتني على هذا الحال ، فقد كنت أراه حالاً أشقى من حال البهائم. كنتُ خائفاً جداً من سوء الخاتمة ، ولكني كنتُ أغرق أكثر فأكثر.

نساء وخمرة ومال حرام كثير ، كثير جداً إلى درجة يخاف منها الإنسان العاقل ، غشّ وتلاعب في بيع الخمور !ودارت الأيام وما زلتُ في المصيدة ، ثمّ فجأة يأتيني هاتف من أبي يقول لي فيه :المال الحرام يذهب هو وأهله.

وقعَت تلك الكلمات عليّ مثل الرعد والبرق في ليلة شتوية شديدة المطر ، فأبي لا يعلم ماذا أعمل ، وكنتُ كأني أسمع هذا الحديث لأول مرة في حياتي ، إستيقظتُ من سبات طويل ورأيت نفسي أين وصلت!

قررت أن أُنهي كل علاقاتي المالية ، وأبيع شركتي ، وأُعيد المال لأصحابه ، وهنا تأتي يد القدر كي تُعلّمني أنه من يعمل مثقال ذرة شراً يره!

ما كان لإنسان أن يهرب من دفع فاتورته الحياتية ، كما تُدين تدان ، وبالكأس الذي تسقي به ستشرب من دون شكّ.

جلستُ قرب سائق جديد في الشركة ، وعلى سرعة قليلة نسبياً تنفجر عجلة السيارة .تميل السيارة إلى الارتطام من جهتي ، وفجأة يحدث معي عكس ما يفعله أيّ انسان !لم أتوتر ولم أصرخ ولم أفعل أيّ شيء ، أتاني هدوء عجيب جداً ، واسترخيتُ بقوة وأُغمضتُ عينيّ !حدث الارتطام بالشجرة من جهتي

فضرب رأسي بالزجاج وغبتُ عن الوعي.

وجدتُ نفسي أسبح في بحر أبيض من الحليب .يا لها من مُتعة !علمتُ أنني قد انتقلتُ إلى عالم البرزخ .كنتُ في حالة روحانية عالية جداً ، راحة وسرور وجمال وروعة !سررتُ كثيراً ، وأصبح لديّ يقين في داخلي أنّ هذا هو الموت.

هل يُعقل أن يكتب الناس عن الموت وبشاعته وأنا أشعر بكل هذه المشاعر السامية ؟

ثمّ فجأة نظرتُ الى السماء وأنا أسبح ، فانفتحت نافذة سوداء كبيرة ، وشعرتُ بمَن يسحبني إلى الأعلى ويعود كي يُلقيني في عالم الدنيا قائلاً:

"لم ينتهِ دورك في الحياة بعد."!

أفقتُ من غيبوبتي في سيارة مُحطمة لم يظنّ من رآها في أسفل الوادي أنّه سيخرج منها أحد على قيد الحياة ، كان كتفي مخلوعاً ، وكانت الجراح تملأ كلّ وجهي وجسدي.

استغرقَت عملية شفائي حوالي نصف سنة ، جلستُ فيها حبيس المنزل أتفكّر في كلّ شيء .قضيتُ ليال طويلة مع الله أتناقش معه ، استغرقتُ كثيراً في حياتي الماضية والدروس التي يجب أن أتعلّمها .غرقتُ مراراً وتكراراً في الماضي ، أُكرره وأستعرضه وأُحاول استنتاج شيء منه.

كنتُ وقتها في علاقتي مع الله ، سائراً على مبدأ أنّ عقوبة الإله في الدنيا أفضل من الآخرة .وأنّ أيّ شيء تفعله بعيداً عما حلله الله ستلقى عقوبته في الدنيا قبل الآخرة .كنتُ أحياناً ألوم الاله على حالي الذي وصلتُ إليه ، وأحياناً أرجوه تخفيف العقوبة ، وأحياناً أستحيي أن أُخاطبه وأنا القذر النجس الخارج

للتو من أحضان الرذيلة.

لم أجد الأُنس في أيّ شيء .كان تفكيري مُستمراً دائماً ، وكان شريط أحداث الماضي يعود مراراً وتكراراً دون توقّف ، ودون أن أصل إلى أيّ نتيجة.

كان الندم على ما فرّطتُ في حياتي هو أشدّ من النار على قلبي .كنتُ أتوب وأستغفر كثيراً بعد أن ذهبت الصدمة التي استمرّت أكثر من عشرة أيام .كنتُ في حال الصدمة مدهوشاً متوقف التفكير ، أنظر إلى جسدي المُنتفخ ، وإلى الجبس الموضوع على أماكن مختلفة من جسدي ، وأُعاني من آلام مُبرحة.

تمنيّتُ مراراً بعد أن زال مفعول الصدمة أن أموت وأعود إلى ذلك العالم الذي كنتُ فيه أثناء حادث السيارة ، ولكن بقي الصوت الملائكي يرنّ في أذني: لم ينتهِ دورك بعد.

تذكرت كثيرا موت عصفوري وأنا صغير ، وتذكّرت موت الجارة أُمّ حسّان .هل هذا هو الموت الذي لم يكن مفهوما سابقا عندي؟ هل فعلاً يموت الإنسان ، فينتقل إلى عالم الهدوء والاسترخاء والجمال؟ أين ملائكة العذاب وخصوصا لرجل عاص مثلي؟ أين أهوال الموت؟ وبين التفكير في كلّ شيء ، وإعادة استجراره ، كنتُ أتذكّر بندم شديد صوت أبي وهو يتحدّث عن المال الحرام الذي يذهب هو وأهله ، نعم لقد ذهب المال ولكن ربي لطف بأهله.

تماثلتُ إلى الشفاء ، وتراكمَت الديون عليّ بعد أن هرب شريكي بمُعظم أموال الشركة ، وعلمتُ أنّ العقوبة في حياتي سارية المفعول ، وأنّ خروجي ممّا أنا فيه سيستغرق الكثير من الوقت .علمتُ أنني في وضع يجب أن أصبر وأتحمّل كثيرا كي أخرج منه ، ونظرتُ في اتجاه الإله تائباً.

***

عدتُ إلى دراساتي العليا ، وفتح لي الله امكانية التدريس في مسجد المدينة وبدأت رحلة القرآن والعربية مع شباب وفتيات أجانب .عدتُ إلى شيء طالما افتقدته وهو التعليم ، كنتُ مُستمتعا جداً بالتعليم ، ولكني وجدتُ أنّ نواس القدر يميل بي إلى تطرف ديني لم أعهده في نفسي سابقاً.

كان الشباب الذين أُدرّسهم أجانب مُتطرفين ، ولم أكن أعلم وقتها أنّ ردة فعل أيّ متدين في بلاد الغرب على التفلّت المجتمعي سيكون تطرفاً شديدا كي يحمي نفسه من الانزلاق في جاهلية المجتمع الذي يُحيط به.

وجدتُ شباباً تركوا أُسرهم لأنّ أحد الوالدين أو كلاهما يأكل الخنزير أو يشرب الخمر .وجدتُ فتيات لا يكدنَ يجدنَ توافقاً بين الاسلام والمجتمع ، وخصوصاً في مسألة الحجاب .تعذّب الشباب والفتيات حولي ، وكنتُ أُحاول تبسيط الأمور لهم ، ولكني من جهة أُخرى كنتُ على ما يبدو أخشى أن تزلّ بي القدم وأعود إلى الجاهلية ، فلم أعد أسامح نفسي بأيّ ذنب ولو كان بسيطاً ، ولا بأيّ تجاوزات.

كان الجو العام جو تطرف ديني شديد .وكم تذكّرتُ طويلاً ذاك المُسلم الجديد الذي دخل إلى المسجد وقال إنه يُريد أن يُسلم ، فقال له طلابي أن يغتسل ، وتشددوا في المسألة والبرد قارص جداً ، فما كان منه إلا أن استحم فوق الثلج بماء بارد ، ثمّ دخل المسجد وأشهر اسلامه ، فحمدنا الله كثيراً.

فجأة أشار الشباب إلى علبة سجائره في جيبه ، فأشرتُ للجميع أن يصمتوا. بيد أنه لمح تهامسنا فسأل :ما الأمر ؟ فأجابوه :إنّ التدخين حرام!

إنّ ما قام به هذا المُسلم الجديد بعد ذلك صعقني ، فقد سألني" :أنا أُدخّن منذ عشرين سنة ، فهل التدخين حرام ،"!لم أقدر على الاجابة ، ولكنّ الرجل

أصرّ على جواب ، فأجبته كلّ ما يضرّ الصحة والمال والجسد حرام !فلم ينتظر ولا لحظة .عصر علبة سجائره بكفه ، ورماها إلى الخارج طالباً التوبة من الله!

***

فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان ، لقد حدث ما كنت أخاف منه بالضبط.

أفصحت لي حورية شقراء بيضاء عن حبها ، فوجدتني نائماً في أحضانها طوال الليل في شغف مذهل ، لم يكن هناك رادع كي أردّ ما ترجوه مني ، وأنا الباحث عن تلك المرأة التي يرجف قلبي بين ذراعيها وكأنني طفل صغير.

في الصباح ، وعلى غير العادة ، كان هناك شيء في داخلي يصرخ" :كفاك عبثاً ، ما لهذا خُلقت."

لقد أُصبتُ فور خروجي من بيتها بآلام يعجز عن إدراكها سوى النساء في حالة المخاض .آلام كادت تُودي بي ، وفي المشفى أُشيع أنني لن أنجو ، ورُبّما تسبب هذا الالتهاب الشديد في الخصية بضرورة ازالتها ، ورُبّما تمتد العدوى إلى الخصية الأُخرى.

قضيتُ أربعين يوماً في المشفى ، وكانت هذه الأيام كفيلة بأن أرى آلاماً فاقت تلك التي حدثت بعد حادث السيارة .كان قسم الامراض البولية والتناسلية كفيلاً أن يمحو ما تبقّى عندي من شهوات اللذة أيّ كانت.

ما زلتُ أذكر بقوة كيف استيقظتُ مغمى عليّ في المرحاض سابحاً في البول! أيّ حياة أعيشها؟ أي مستوى انسانية انحدرتُ اليه؟ كيف يُمكن لإنسان أن يُسمّي هذا الذي ألقاه حياة؟ صرختُ إلى ربي طالباً الموت في كلّ لحظة.

ذات يوم صرتُ أصرخ وأسبّ وأشتم وأنا في غمرة آلامي ، وغفوت تحت تأثير

المُخدّر ، ورأيت شيخي السريّ جالساً إلى جانبي على سرير المشفى ، يمسح على رأسي البارد و يقرأ لي آيات من القرآن الكريم.

"-الله ، كدتُ أنسى صوتك يا شيخي."

"-نحن لا ننساك يا بُنيّ."

"-ولكنني قذر وسخ تفوح مني رائحة النساء."

"-آن الأوان كي تصحو."

"-أُريد أن أُشفى."

راح الشيخ يُمرر يديه على جسدي ، الذي راح ينتفض كمن انتابته نوبة صرع.

تصبب العرق من جسدي وأفقت حينما كانت يده الحبيبة فوق رأسي وهو يقول" :بسم الله النور الفتاح العليم ، إفعل كما أفعل."

فتحتُ عيني كي أرى الممرضة والطبيب في حالة ذعر أيقظني ممّا أنا فيه. كنتُ دافئ الجسد مُرتاحاً ، وقد زالت الآلام .إبتسمتُ لهما وقلتُ بصوت مملوء بالحُبّ والحنان" :أُريد أن أنام ."إبتسم الطبيب وغادر مع الممرضة ، وهما يتحدثان عن الأعجوبة التي أزالَت الحُمّى عن رجل كاد أن يخضع لعمل جراحي لا يرجوه رجل على وجه الأرض.

لم أعلم في أيّ ساعة أفقتُ من نومي الجميل ، ولكني علمتُ لاحقاً أنني نمتُ عشر ساعات مُتواصلة .كنتُ في كامل صحتي ، وقررتُ أن أهرب من المشفى ، وهكذا فعلتُ ، خرجتُ من المشفى في ثياب ألبسوني إياها تحضيراً لدخول غرفة الجراحة.

عندما وصلتُ إلى البيت دُهشَت زوجتي من رؤيتي هارباً من المشفى ، ولم

أُخبرها إلا أنني تماثلتُ إلى الشفاء بأعجوبة.

نقلة إلى عالم الوعي

مرّت عدة أيام بعد قراري أن أتغيّر ، وعندما ينوي الإنسان من أعماقه أن يتغيّر ، تبدأ الظروف المواتية في الدخول إلى حياته .حصلتُ على عمل في الاختصاص ، وعدتُ إلى القراءة خلال طريق الذهاب والعودة إلى البيت الطويل ، كانت البداية مع كتاب بعنوان"حياة ، حُبّ ، ضحك ،"قرأتُ الكتاب المُكوّن من سبعين صفحة في مدة ساعة ونصف رُبّما ، وقد نقلني الكتاب إلى عالم مُختلف تماماً وشكّل صدمة لي ، فهو يُخالف كلّ ما عرفته سابقاً .

أدركتُ أنّ ما أعيشه ليس حياة على الاطلاق !إنّ الحياة الحقيقية في اللحظة الراهنة ، وأنّ طاقات الإنسان تذهب في مُعظم الأحيان إلى الماضي الميت الذي ذهب ولن يعود ، أو إلى مُخططات المستقبل الذي لا نعلم هل يأتي أم لا .لقد وجدتُ أنّ الحياة هي أبعد بكثير من مشاكل الإنسان ، وأنها مُتغيّرة كلّ يوم ، فلا يوم يُشبه الذي سبقه ، ولا شروق شمس يتكرر ، ولا غروبها أيضاً !وجدتُ أنّ مُشكلة الإنسان الكبيرة في أنه يخرج عن هذا الانسجام القوي مع الطبيعة التي تُحيط به والتي تتسم بالتوازن والروعة والجمال.

أدركتُ أنّ الاستقرار في الحياة خدعة كبيرة وأنّ الأساس هو التغير الدائم ، ومن الأفضل أن يكون التغيير في اتجاه الصعود إلى أعلى.

كان المحور الثاني عن الحُبّ ، وقد قال فيه الكاتب إنّ الجميع يتحدّث عن الحُبّ ، ولكن لا أحد يعرف ما يعنيه بالضبط .وأنّ الحُبّ يجب ألا يرتبط

بموضوع معين ، ولا يكون مُعنوناً تجاه أحد ، وأنّ الحُبّ يجب أن يكون تجاه الإله فقط .وأنّ محبة الإله يجب أن تكون في عمق محبتنا للأشخاص ، والنباتات ، والحيوانات ، وكلّ ما يُحيط بنا .وأنّ الحُبّ مُترادف مع الصلاة.

إنّ الحُبّ ليس بالأمر الذي يُمكننا القيام به ، بل هو أمرٌ يحدث ، فهو شيء أكبر منا ، وأكثر سعة أيضاً ، ولا يُمكننا إدارته والتحكّم فيه .يجب أن نشعر بالامتنان عندما يأتينا الحُبّ ، وعندما يُغادرنا الشعور ننتظر من جديد ، ولكن لا نقوم بادعاء الحُبّ أو التظاهر به.

قد يسلك الحُبّ ايّ طريق ، قد يمرّ من خلال الولد ، الزوجة ، الزوج ، الصديق ، من خلال شجرة أو صخرة ، قد يمرّ من خلال أيّ شيء ، ولكنه دائماً يصل إلى الإله.

إنّ الحُبّ هو المفتاح السريّ القادر على فتح جميع الأقفال ، وكلّ الحواجز.

إنّ الحُبّ الحقيقي أكبر منا ، إنَّه ضخم ، هائل .إنَّه يغمرنا ، ويجرفنا بعيداً بكلّ بساطة ، فلا نبقى واقفين في أيّ مكان .مع الحُبّ الحقيقي نفقد كياننا ، فهو أمرٌ عظيم ينبع من الجنة.

إنّ الحُبّ مُمكنٌ فقط عندما ينتفي التملّك ولا يكون هناك غيرة .عندما نُحبّ الشخص ، ولكن لا نجعل منه عبداً ، ونحترم حريته ، ولا ينقلب حُبّنا حبساً. نُحبّ ونبقى غير مُتعلّقين في الوقت ذاته .نُحبّ بقوة ، ولكن لا نتشبث.

إنّ التعاسة التي يجلبها الحُبّ ليست بسبب الحُبّ ، بل بسبب القيود التي تُحيط به.

أمّا المُحور الثالث فكان عن الضحك والبهجة ، وهو يُناقض كلّ ما تعلّمته

سابقاً عن ارتباط الدين بالحزن والدموع .أدركتُ أنّ الحياة في أصلها السرور والفرح والبهجة ، أدركتُ أنّني على أبواب معرفة الإله من منطلق جديد لم أكن أعرفه !لقد علّمونا أن نرتبط مع الإله بواسطة الدموع والأحزان ، ممّا حول حياتنا إلى مأساة.

عندما ننضج سنعود مثل الطفل الصغير ، ممّا يُحيل حياتنا إلى متعة ، حيث نستمتع بكلّ لحظة دون أيّ جديّة ، ويملأ الضحك كلّ أرجاء حياتنا.

إنّ الضحك هو أكبر من أيّ فلسفة .عندما يضحك الإنسان من الحياة فهو يفهمها تماماً.

إذا استطعنا أن نضحك ونشعر برنين الضحك الصادر من قلب وجودنا ، وليس فقط أن نرسم ابتسامة مُحترمة على وجوهنا ، فسيُعطينا هذا الضحك أول لمحة من اشعاع الحياة التي هي سرّ كبير.

إنّ الضحك مُمتلئ بالصلاة لأنّك تتقبل الحياة معه دون أن تبحث عن شرح لها .إنّ الشيء الأكثر غموضا في الإنسان هو الضحك ، إنّ الإنسان وحده يضحك من بين الكائنات الحية ، بل إنّ الضحك والبكاء من العلامات الفارقة عنده. يمتلك الإنسان الحقيقي المقدرة على الضحك بقدر ما لديه قدرة على البكاء ، ولديه القابلية كي يكون سعيداً وكذلك كي يكون تعِساً.

أمام هذه المعاني شعرت بانفصال قوي عن واقعي ، شعرتُ بأنني في عالم مختلف كلياً عمّا عشته وأعيشه ، شعرتُ بأشياء تتعدى حدود التفكير تتملكني ، انعزلتُ داخلياً عن كلّ ما يُحيط بي في مُحاولة الاحتفاظ بالمتعة التي شعرتُ بها حينها ، متعة الادراك ، متعة الوعي ، ولم أكن وقتها أعرف ما هو الادراك وما هو الوعي.

بعد شهر شعرتُ أنّ تلك المتعة والسعادة الداخلية قد بدأت تخبو ، فعدتُ وقرأتُ الكتاب من جديد .شعرتُ هذه المرة أنني أقرأه بعيون جديدة وقلب مُختلف وفهم آخر ، وعدتُ إلى السُكر والنشوة الداخلية أكثر من أربعين يوماً ، ولم يُخرجني من هذا الحال إلا مرض جلدي شديد أصابني .أعادتني الحكة الشديدة إلى واقعي ، عانيتُ بعدها ثلاثة أشهر من المرض ، وفي بالي شيء واحد :يجب أن تُصبح المتعة الداخلية ، وحالة الامتلاء التي شعرتُ بها حالاً دائماً.

تذكّرتُ أنّ الجرعات في الحياة يجب أن يتمّ هضمها ، وفهمتُ أنني يجب أن أتدرج كي يقدر جسدي المادي على استيعاب الشيء الجديد الذي لم أكن قادراً على تسميته بعد .تماثلتُ إلى الشفاء فور إدراكي لهذا الدرس في الحياة ، وعدتُ كي أتعامل مع واقعي بالتدريج انطلاقاً من أساسيات الحُبّ والضحك والحياة التي كانت تملأ داخلي بكلّ المعاني الايجابية.

مررتُ بعد أن تعافيتُ على المكتبة ذات يوم ، ووجدت كتاباً بعنوان"المُعلّم -أحاديث عن الصوفية ."كان كتاباً ضخماً بمعانيه وعدد صفحاته ، وقد أعادني كلياً إلى شيخي السريّ الذي وجدته يقرأ معي كلّ حرف من هذا الكتاب.

انتظرتُ عطلة نهاية الأسبوع كي أعتكف مع الكتاب مدة يومي الاجازة ، وأصبح هذا الأمر عادة عندي بعد ذلك ، إذ كنتُ أُخصص وقت اجازتي للقراءة ، بينما أستوعب الجرعة بقية أيام الأسبوع.

كنتُ في ليلة واحدة أو ليلتين أقرأ كتاباً يتجاوز عدد صفحاته المئتين ، وكنتُ أدخل من جديد في تلك العوالم الغريبة التي تتحدّث عن الوجود والفناء ومحبة الذات الإلهية وإدراك ما يدور حولنا عبر قنوات جديدة.

ليس غريباً أن استمتع بالقراءة فأنا النهم للمطالعة منذ حداثة سني .وقد كان والدي يُعير المطالعة أهمية كبيرة ، وكنتُ شديد الحماس في قراءة كتب أبي من مكتبته العامرة بكتب الفقه والسيرة وقصص الصالحين ، ولطالما كنتُ أوفّر من مصروفي كي أشتري مجلات اليافعين والأطفال.

كانت مكتبتي الأولى تضمّ بعض القصص الجميلة والمجلات الملونة ، وكنتُ أتطلّع إلى يوم أملك فيه مكتبة تضمّ أمهات الكتب ، وأعداداً كبيرة من أضخم عناوين الكتب في سائر المجالات.

في تلك البلاد ، بدأتُ أجمع مكتبتي الثقافية ، ولكنها مكتبة من عالم آخر ، فلا أنبياء في طيات الكتب ولا رسل ولا تابعين ، بل علوم تُشير إلى سلوك الصالحين وأساليب الارتقاء الروحي دون مباشرة أو خوض في أسماء وتواريخ وشخصيات بعينها .أبحرتُ في عالم جديد وخضتُ في تجربة جديدة غيّرت لي حياتي على نحو كبير.

توالَت قواعد الوعي في حياتي ، وتوالت نوافذ النور في الانفتاح ، وشعرتُ بالإدراك الجديد وهو يشفيني ، ويُعيد بنائي من الداخل على قواعد جديدة لم أعرفها في حياتي السابقة أبداً.

فهمتُ أنّ التغيير الداخلي هو الأساس ، وأنه لا يُمكن أن يتغير واقعي الخارجي دون أن يكون هناك تغيّر داخلي في المشاعر والتفكير ، ومع أول كتاب عن التأمل واجهتُ أفكاري التي لا تتوقّف ، وأصبحتُ أخرج إلى الطبيعة فترات أكثر وخصوصاً أنّ سكني كان خارج المدينة بالقرب من الغابة ، بدأتُ أتصل أكثر مع الطبيعة ومع كلّ ما يُحيط بي ، ووجدتُ أن علاقتي مع الإله بدأت تنبني على أُسس جديدة.

بعد فترة كان لي لقاء مع كتاب زلزلني وهو كتاب عن الأنا وقد نقلني نقلة واسعة من جديد، تواجهتُ فوراً خلال قراءتي للكتاب مع أناي التي رفضَت القراءة، ثمّ بدأتُ وأنا أقرأ أرى الأنا عند الآخرين، ثم ما لبثتُ أن قسّمتُ الكتاب وقرأته على مراحل طويلة، أقرأ جزءاً، وأترك أناي تُصارع مسألة اكتشافها وأبقى مُراقباً، حتى إذا هدأت الأمور، قرأتُ الجزء الذي يليه حتى أتممتُ الكتاب. استوعبتُ في النهاية أنّ أناي المزيفة كانت أحد أسباب فشلي المُتكرر في الحياة، وأنها تتسم بصفات كثيرة منها:

ترتبط الأنا بقوة بالانتظار والتمنّي، وهي مُنغلقة، وتُحبّ التقييم، جدية دائماً، عنيدة، وماكرة، حساسة جداً تجاه المساس بها، وهي تهتمّ بالظاهر وتُبعدك عن كلّ ما هو داخلي .تُبعد الإنسان عن لحظة"الآن - هنا ،"وتُحاول أن تُغرقه في تراكمات الماضي، تُحب السيطرة والسلطة، أو تستمتع بأن يكون هناك من يسيطر عليها .تُحاول التَأثير في الآخرين، وأحيانا تُورط الإنسان كي يقع تحت تأثير الآخرين .تتآمر مع التفكير السلبي والشعور السلبي على الإنسان، وتترافق مع مشاعر البؤس والغضب والغيرة والآلام والرغبات .تستمرّ في الطموح إلى الأهمية وإلى أيّ شيء آخر، وتعيش دائماً الأمل بشيء غير موجود قد يأتي في المستقبل، تهوى الاختلاف والامتياز، تُحبّ التباهي ومراءاة الناس حتى في الأمور الروحانية .تُحاول إثبات نفسها أمام الآخرين .تنظر في عيون الناس وتجمع آراءهم مُحاولة تكوين رأيّ عام يُعطيها الصورة، ثمّ تبذل أقصى ما في وسعها كي تتوافق مع هذا الصورة العامة.

عندما تظهر"الأنا "يبدأ الشكّ بالتأثير، وتتولّد الانقسامات ويختفي الحبّ. تجعلك الأنا المزيفة تشعر بالخسارة دائماً، لأنّك دائماً تعيش الخوف من فقد

شيء أو شخص ما .تجعلك تشعر دائماً أنّ المُذنب هو الآخر .تجعلك في قلق دائم في محاولة الوصول إلى حلّ جديد لمشاكل قديمة .إنها تتجنب الأماكن أو الأشخاص الذين يُذكّرونك على نحو مؤلم بأحداث الماضي.

إنها ترى على سبيل اليقين أنه من الأفضل أن تُعاني وتشعر وكأنها شيء مُعتبر على أن تتحرر وتصبح لا شيء .إنها ترى أنّ الحياة قد تُصبح بلا معنى إذا لم تدخل في أيّ صورة من صور الصراع .إنها تجعلنا نعيش الفكرة الخاطئة نفسها التي مفادها أنّ ذاتنا تتحدد أو تتأثر بما يحدث لنا .إنها تُخيفنا من كلّ شيء تقريباً يتغيّر في حياتنا ، فنُصبح خائفين من فقد السيطرة على ذاتنا ، إذا تعذّر علينا السيطرة على الأحداث .إنها تعيش على الاستجابات الانفعالية السلبية التي يُثيرها ويدعمها التفكير المعتاد الذي يفتقر إلى الصواب .إنها تهوى البحث عن المشاكل والشجار مع الأخرين ، وتعيش على مشاعر الكرب والغم ، وكلّ ما تحتاجه كي يتحقق لها الفوز هو أن تبقى في حالة صراع مُستمر .إنها تعشق البناء على الرمال المتحركة ثمّ الشكوى بعد ذلك من أنّ الحياة تغوص في هذه الرمال .إنها تتبنى الشعور بالذنب والقلق كوسيلتين من وسائل الخداع المفضلة لديها .إنها تهوى دور ضحية هذا العالم ، وأنها على خلاف دائم معه ، وتهوى الصراع الدائم مع الأشباح ، وتُحاول دائماً التشبث بالأوهام التافهة .إنها تُحاول على نحو دائم أن تستحوذ على انتباهنا كي تُظهر لنا أنّ هناك شيئاً مفقوداً في حياتنا .إنها ترى أنّ معنى الحياة هو المُعاناة .إنها تقوم بكل شيء يُمكنها القيام به من أجل إقناعك أنّ الانفصال عنها ليس خطيراً فحسب ، بل مُستحيلاً أيضاً.

تُلحّ الأنا المزيفة علينا أن نعكس وجهتنا من الأحدية إلى الثنائية ، من

الوحدة إلى الانفصال .إنَّ عمل الأنا المزيفة الأهمّ هو تشجيع الطموح وخلق هوية جديدة"حتى لو كانت كاذبة ."تُريدنا الأنا المزيفة أن نكون شخصاً أكثر أهمية من كلّ الآخرين!

إنّ مُكوّنات الأنا المزيفة هي :ما أملكه يُحدد مَن أكون ، ما أفعله يُحدد مَن أكون ، آراء الآخرين تُحدد مَن أكون ، أنا مُنفصل عن الجميع ، أنا مُنفصل عمّا هو مفقود في حياتي ، أنا مُستقلّ عن الإله.

كانت الصدمة أنني وجدتُ الأنا في كل أحداث حياتي ، واكتشفتُ دورها الخطير في كل ما وقعتُ فيه من المصائب والكوارث .لقد تعلمتُ أنّ التعلّق بأي شيء أو أي شخص هو من صفاتها الأساسية ، وأنّ التعامل مع الأنا من خلال مراقبتها يقينا شرّ التعلّقات.

عرفتُ فيما بعد سرّ التربية الصوفية للنفس كي تترك التعلّقات التي يُسمونها العلائق.

تطبيق عملي

يمرّ الإنسان عادة بفترات صعود يتلوها نوع من السكون حيث يبدو أنه لا يحدث أيّ شيء ، ثم يعود إلى الصعود على طريق النضوج الروحي .أكاد أجزم أنّ سنواتي الخمس التالية كانت في صعود دائم حيث انشغلتُ بإنهاء دراساتي العليا ، وفي المطالعة واستيعاب مبادئ الوعي ، وفي عملي في اختصاصي حيث كنتُ مُبدعاً ومُتفوقاً كالعادة ، وقد خصصتُ أيضاً وقتاً سنوياً خلال اجازة السنة حيث كنتُ أعتكف مع مجموعة مُتنوعة من الباحثين في الغابات مدة شهر.

لقد علّمتني تجربة الغابات الكثير ، وأهمّ ما تعلمته هو أنّ الإنسان يحتاج أن يعود إلى الفطرة وإلى العيش في الطبيعة ، ومن دون ذلك تبدو نظريات الوعي والتأمل والروحانيات شيئاً نظرياً لا قيمة له .شعرتُ كم ابتعد الإنسان عن الكون في بيوته الاسمنتية ، ورأيتُ حقيقة أنّ حضارة الانسان السريعة المليئة بالعمل والتنافس المحموم ليس لها علاقة بالحضارة الحقيقية.

إنّ حضارة الإنسان الحقيقية في عودته إلى الطبيعة ، وفي بُعده ولو فترة من السنة عن كلّ ما يفعله من أمور الحياة الاعتيادية ، واعتكافه في منعزل في أحضان الطبيعة حيث يتعامل مع روحه ومع مشاكله النفسية والعاطفية والفكرية وما أكثرها عند ما يُسمى بحضارة التقنيات ووسائل السرعة.

إنّ الغابات كائن يمتلك طاقات كبيرة وعادة ما تكون ردة فعل الإنسان الطبيعي عندما يدخل إليها أن يشعر بدخوله في عالم مُختلف ، شعور بالانزعاج

والوحدة الكبيرة ، مُواجهة شبه فورية مع الأنا المزيفة ، وطبقات الركام والأوساخ فوق جوهره النقي ، ثمّ تستمرّ مرحلة التعوّد أياماً حسب مشاكل الإنسان وتجربته الذاتية في التأمل.

قد يهرب الكثير من الناس في أول يومين نتيجة هذه المواجهة ويعودون إلى ما هم عليه ، ولكن مَن يصبر قليلاً يستطيع أن يُكمل ويحصل على نتائج رائعة. قد تظهر هذه المواجهة مع الذات على شكل صداع أو أيّ مرض آخر ، ثمّ تستقيم الأمور ويبدأ الإنسان في تنظيف ما تراكم على جوهره الذاتي النقي.

كانت تجاربي في اعتكاف الغابات أكثر من رائعة وقد صعدتُ من خلالها درجات كبيرة على سلم النضوج الروحي ولعلي حصلتُ على لمحات استنارة هناك بالذات.

لقد فهمتُ أنه من أساسيات الحياة الروحية أن يتفاعل الإنسان ، بل ربما يذوب مع وفي جمال الطبيعة التي تُحيط بنا ، وهي زاخرة بشتى الألوان والأشكال على نحو لا يتكرر ، وأدركتُ أنه لا بُدّ للإنسان أن يستمتع ولو أياماً في كل سنة بحال انعدام التفكير ، واستشعار الطبيعة الغنية بالجمال الذي لا يُمكن أن يُوصف ، بعيداً عن ضوضاء وصخب المدينة.

في مرة مع أصدقائي الباحثين عن الحقيقة الداخلية صعدنا الجبل المُطلّ على البحيرة وأخذ كلّ منا مكاناً بعيداً نسبياً عن غيره ، وما إن جلستُ في ذلك المكان الصخري العالي المُطلّ على منظر ساحر من الماء الرائق والمساحات الشاسعة من تموجات اللون الأخضر ، حتى صعد من الأسفل نسر كبير حلّق بجناحيه الكبيرتين من فوقي ، استلقيتُ من فرط الدهشة على ظهري ، وتوقف تفكيري كلياً ، يا للروعة!

تابعته وهو يصعد بحركات حلزونية أعلى فأعلى ، وكم تمنيتُ وقتها أن أطير معه .بقيتُ على حال الطيران هذا ساعات ، لا أفعل شيئاً غير الاستمتاع بالتحليق والطيران فوق ألوان الماء المُتعددة ، وألوان الشجر المُتنوعة ، وألوان السماء وتموجاتها.

كانت رحلة لا تُوصف !وحتى عندما أتى أصدقائي ورافقوني في النزول لم أخرج إلا بعد أيام من تلك الحال السامية من الدهشة وتذوّق الجمال ، والتواجد في حال الطيران العالي.

ثمّ حدثَت معي في رحلة أخرى تجربة أُخرى ، عندما استيقظتُ في حال تأملية بعد القيلولة بعد شروق الشمس ، استيقظتُ في حالة استرخاء كبيرة ، فاستلقيتُ على باب الخيمة أُراقب الأعشاب الطويلة والنباتات المُختلفة ، والحشرات الطائرة الموجودة خارجاً ، فبدأتُ أصغر في الحجم حتى أصبح كلّ شيء كبيراً حولي .قمتُ بجولة في تلك العوالم التي ندوسها أحياناً بأقدامنا ، حيث بدت الفراشات والحشرات كبيرة ، وبدت الأعشاب كأنها أشجار خضراء متمايلة ، لقد وجدتُ أنّ ذلك العالم الصغير في أعيننا ليس عالماً واحداً بل عوالم كثيرة ، يجمعها مع عوالم السموات والمجرات ابداع الخالق ، والجمال المتنوّع الذي لا يتكرر ، ليس هناك شيء لا يتجلى فيه جمال الخالق من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة .ليس هناك حدود للإبداع ، تنظيم مُدهش وعوالم مُتداخلة مع بعضها ، أساسها العطاء ، والاستمتاع بالحياة كما خلقها الله وأوجدها.

أمّا التجربة الثالثة فكانت تجربة القمر البرتقالي المُشرق على سطح البحيرة: بعد أداء صلاة المغرب شعرتُ بلون برتقالي يُلامس كتفي ، وعندما أنهيتُ الصلاة استدرتُ إلى مصدر الضوء فوجدتُ القمر يُشرق على سطح البحيرة

الصافي ، وقد رسم درباً برتقالياً على سطح الماء ، كنتُ أرى هذا المشهد لأول مرة في حياتي ، توقّف التفكير كليا ، واندمجتُ مع هذا المنظر الساحر ساعات لم اتزحزح خلالها من مكاني ، ما حدث في داخلي أشياء تعجز الكلمات عن التعبير عنها ، شعور السلام والسكينة والاطمئنان ، شعور أنني لو أردتُ ، أستطيع الآن أن أمشي على الماء في اتجاه النور ، شعرتُ بتفاهة الأحمال التي يحملها الإنسان على مدى حياته فتُغرقه في جميع أنواع المشاعر السلبية ، شعرتُ بالتحرر وأنني طليق كما هي الطبيعة حولي ، شعرتُ بلذة الحياة الحقيقية ، ما أحلى تلك الحياة التي تنبع من دواخلنا ، لقد شعرتُ بذلك الجوهر المُنير داخلي.

التجربة الرابعة كانت لي مع عالم أعشاب متجوّل يعيش في الغابات ، حيث احترق الجلد على ظهري في الشمس ، ثمّ التهب وبدأت التقيحات بالظهور ، ولم يكن معنا إلا قليل من المسكنات ، وكانت الآلام شديدة ، وذات يوم بينما كان صديق لي يقوم بدهن التقيحات بمرهم ، مرّ رجل بلحية بيضاء طويلة من جانبنا ، ورأى المنظر فسلّم وسألنا:

ألا تدرون أنّ هناك علاجات فورية لهذا الأمر في الغابة حولكم ؟!

ليتك تدلنا عليها أيها الشيخ الوقور فأنا أُعاني من أيام من التهاب الجلد.

ذهب الرجل وأحضر نبتة وطحنها ووضع عليها قليلاً من الكحول ، ثمّ وضعها على قطعة قماش ، ثمّ ألصقها بمكان التقيحات ، ونمتُ بعد ذلك عدة ساعات .كانت المفاجأة عندما استيقظتُ وطلبت من أصدقائي أن ينزعوا الضمادة ، فوجدوا مكانها خالياً كلياً من أيّ التهابات وتقيحات!

كان الأمر كالمعجزة ، وقد حثني ذلك إلى التفكير طويلاً في غنى الطبيعة

بالعلاجات والأدوية ، وكم ظلم الإنسان نفسه بالتهام الكيماويات ، وكلّ ما حوله في الطبيعة يحمل سرّ الشفاء.

حدثني هذا العجوز في لقاءات أُخرى أنه من أكثر من عشرين سنة يعيش في الغابات ، حدثني عن العلاجات والشفاء ، وروى لي قصصاً عن علاجاته .حدثني كثيراً عن دوري في الحياة ، وعن أنني أمتلك قدرات علاجية ، وأنّ المُعلّم الروحي رجل يأخذ بك إلى أرض النور ، حيث لا أرض ولا سماء ، حيث النور في كلّ مكان ، إنها السعادة الأبدية ، البهجة والرقي ، وحثني على أن أُتابع بحثي عن مُعلّمي الذي يرى روحانيته ترافقني دائماً.

***

كنتُ أظنّ أن تعلّقاتي بعد جرعات الوعي قد انتهت ، ولكنّ الله لحكمة يريدها أراد أن يمررني من خلال مُعظم التعلقات التي سأُعلّم الناس لاحقاً كيف يتعاملون معها.

في زيارة إلى عالم الأعشاب العجوز في الغابة حدّثتُه أنني مُتعب من رواية زوجتي لي أنها خانتني قبل عشر سنوات في بداية زواجنا.

-أيها المُعلّم ، أشعر بميل إلى أنثى أحسبها توأماً لروحي.

-إجعل من زوجتك تؤام روحك.

-إننا لا نملك الأفكار والاتجاهات الروحية ذاتها.

-ليس من الضروري أن تكونا على الطريق نفسه ، ما يهمّ هو التآلف والصدق وحسن التعامل ، الاختلاف كمال يا صديقي.

-أرغب في الزواج بها.

-وأسرتك ؟!

-لقد أفصحت لي زوجتي عن أشياء لا يُمكن لرجل شرقي أن يحتملها ، لقد خانتني أيها المُعلّم!

-أخشى أنك تُسقط عليها أفعالاً حتى تُبيح لنفسك الانفكاك عنها بحجة أنها خانتك!

-كيف لعقلي أن يتحمل وجود امرأة كانت في أحضان رجل آخر ، بينما كانت زوجتي ؟!

-وكيف أبحت لنفسك أن تُرافق عشرات النساء وأنت مُرتبط بزوجة وأسرة ؟!

-أنا رجل!

-بل أنت تختلق الحجة من أجل اللحاق بامرأة أُخرى.

إنّ مصير أسرتك وكلّ ما ستُحاول إعماره من أسر بعد الآن مرهون بخطوتك التالية ، حاول أن تضع فعلتها وأفعالك على كفتي الميزان ، فإن تعادلتا فبقاؤك إلى جانبها هو ضمان لحياة مستقبلية أفضل ، وإن تجاهلتَ فعلتها وهجرتها ستتبعك لعنة عدم الاستقرار والارتياح ، إفعل ما تشاء فمستقبلك في يديك.

لا أُنكر أنّ كلامه أخافني ، ولكنني كنتُ أحب تلك الفتاة التي التقيتُ بها على صفحة التواصل الديني عبر الانترنيت ، وكان لي معها حكايات طويلة وأفكار مُشتركة وأحلام مُشرقة.

إلى الوطن من جديد

غادرتُ البلاد تاركاً زوجتي وولدي ذي التسعة أعوام، وأنا سائرٌ نحو حُلم حسبتُه حلم حياتي، سافرتُ وظهر تعلّقي الشديد بالأسرة من أول لحظة، شعرتُ بالأسى الكبير والحزن على ترك طفلي، غادرتُ البلاد التي تعلّمتُ فيها دروساً قيمة، وكنتُ أُعلل نفسي حينذاك أنني وجدتُ ما أبحث عنه، تعلّقتُ بصوت وروحانية تلك الفتاة العربية التي لم تكن في جمال زوجتي التي رافقتني في غربتي سنوات طويلة.

لقد أصبح التعلّق بالجمال والكمال الجسدي أبعد الآن عن ساحة تفكيري، وانتقلتُ إلى مستوى أعلى من التعلّق من خلال جمال روح تلك الفتاة، لقد انتقلتُ إلى التعلّق بالروحانيات.

كنتُ أرغب بشدة في الزواج منها، بيد أنّ التعلّق مرفوض، ولم يكن عليّ أن أتعلّق بها حتى لو كان التعلّق روحانياً، ولكني كنتُ أتلقّى دروسي واحداً تلو الآخر في هذه الحياة، وأنا مُراقب ومُثابر على أن أمضي قدماً مهما كانت الظروف.

ما كنتُ أُدرك أنّ ما سأُقدم عليه سيحتاج إلى فكّ تعلّق أكبر بكثير من فكّ التعلّق بأسرتي والتعلّق بالعمل والتعلّق بالمال، أنا الآن مُتعلّق بصوت عذب يصدر عن روح جميلة نقية .كيف السبيل إلى فكّ تعلق مُشابه؟

بيد أنّ التعلّق كأس مريرة يجب أن يشرب منها المُتعلّق بغير الله، قد يكون

شكل الكأس جميلاً، بيد أنّ طعم الشراب فيه كالعلقم، وقد شربتُه بكلّ احتراف.

وصلتُ إلى البلد العربي حيث تُقيم حبيبتي، وهناك كانت خيبة الأمل، حيث تمّ رفضي على نحو كبير من عائلتها، فأنا لا أملك المال وأنا غريب عن بيئتهم، وعلى الرغم من حصولي في غربتي على شهادة عليا في اختصاص نادر، إلا أنّ تلك الشهادة لم تكن تعني عند ذويها شيئاً، وكانت صدمتي الكبيرة في الشيء الذي كنتُ أبحث عنه !على الرغم من تدين والديّ البنت إلا أنّ أُمّها رفضتني على أساس أني فقير وليس لديّ مال، رفضتني وهي التي كانت تحثّ الناس في حلقاتها الدينية على أن يُزوّجوا بناتهم على أساس الأخلاق والدين.

لقد انصدمتُ في تلك القيمة التي وضعتها أساس اختياري وهي قيمة الدين، ورأيتُ على الفور ذلك البون الشاسع بين الدين والمتدينين، لقد وجدتُ النفاق سلطان جلسات المُتدينين، والمال مُحرّك أفكارهم، والرياء ثوبهم الوحيد.

لم أكن قادراً على العودة إلى زوجتي وولدي، وتحطّمت أحلام الزواج من المرأة التي كانت الأفضل عندما كنتُ بعيداً عنها .لقد اختارت الطلاق مني وانصاعت إلى رغبة أُمّها .لقد كان التشرد وخيبة الأمل عنوان هذه المرحلة، ذاك هو سمّ التعلّق، ومرارة فك التعلّق، إنه ألم لا يعرفه إلا من تجرّع كأسه وذاق طعمه اللاذع.

عدتُ إلى بلادي خائباً، حزيناً، وحيداً، لا أسرة، ولا ولد، ولا زوجة، ولا مال، ولا حبيبة.

ماذا سيحلّ بهذا الصبي !لقد رميتُه إلى حضن البؤس!

بكيتُ طويلاً وأنا في عزلتي أكبت مرارة تلك التجربة، واعتزلتُ الناس عشرة

أيام طبّقتُ فيها كلّ ما تعلمته من أساليب العلاج ، كي أخرج من أزمتي العاطفية ، صرختُ كثيراً وأنا جالس وحيداً في غرفة منعزلة في بيت والدي ، كنتُ أعاتب الله" :لماذا فعلتَ بي ما فعلت؟؟ ،"ولكنّ الجواب كان يأتي على الفور ، وأشعر به مُتدفّقاً مع مجرى الدم في جسدي" :ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ،"نعم أعلم ما هو ذلك الشر ، إنه التعلّق ، وأنه يجب ألا يكون هناك محبة أعلى من محبة الإله في قلب الإنسان ، وأنّ أيّ حبّ يجب أن يكون من خلاله فقط.

كنتُ مُتألماً وفي حاجة إلى السلوى ونسيان ما حدث معي ، وكان الدعاء والتوسل أنيس وحشتي ، وفهمتُ أنّ التعلّق قد يتواجد على مستويات عالية من الإدراك والوعي ، كنتُ على يقين هذه المرة أنني السبب الوحيد فيما جرى ، نعم عرفتُ وذقتُ وأنا أُريد الخروج.

نعم إنه تعلّق جديد ولكنني الآن غير ذاك الرجل في الماضي .لقد كانت تُغرقني أتفه التعلقات ، أما الآن فأنا أكثر قدرة على رؤية الأمور ، وأكثر قدرة على تجاوزها ، في مدة أقصر بكثير ، فلا أُعاني طويلاً ، ولا أسقط في وديان المشاعر السلبية .

قررتُ أن أبدأ من جديد.

***

خرجتُ من البيت راغباً في أيّ شيء سوى البكاء ، توجّهتُ إلى مكان فخم وسط المدينة ، ورحتُ أنظر إلى الناس هناك ، أشكال والوان من البشر وعوالم مُختلفة.

لمحت من وراء زجاج أحد المطاعم وجهاً مألوفاً ، نظرتُ إليه جيداً ، فما لبث

أن التفتَ الرجل إليّ وخرج مسرعاً نحوي بلهفة.

فتح باب المطعم وأمسك بيدي وقال:

هادي !أنت هادي أليس كذلك ؟

سرعان ما تذكّرتُ وجهه الحبيب ، إنه"حسان "جارنا أيام الطفولة في بلاد الغربة.

"-حسّان !!"أنت حسّان جارنا أيام الطفولة.

ضمّني"حسان "إليه بحُبّ كبير ، وبادلتُه المشاعر ذاتها ، فقد أعاد إلى ذاكرتي فترة جميلة من حياتي كدتُ أنساها.

دعاني إلى الجلوس معه في المطعم ، وطلب لي فنجان قهوة ، وبعد أن عرفتُ أنه يعمل في شركة استثمارات ضخمة في إحدى دول الخليج ، وجاء في زيارة عمل لإحدى الشركات في بلدي ، وبعد أن عرف أنني حصلتُ على شهادة جامعية من إحدى الدول الأجنبية ، بدأَت الأسئلة والإجابات تُصبح أكثر عمقاً.

-أراك شاحب الوجه ، هل هذا وضعك الطبيعي أم أنّ مكروهاً قد ألمّ بك ؟

-أُعاني فترة عصيبة ، تعلّق بحبية ثم فك التعلّق بها ، آه ما أقسى هذه الحياة!

نظرتُ إليه وخجلتُ أن أحكي له قصة تعلّقي بفتاة ورفضها لي بعد أن التقينا ، فقد صغرت القصة في عيني بعد أن قال:

هل أُمّك بخير ؟ والدك وأخوتك ؟ كلهم على قيد الحياة ؟

يا الله !إنّ بقاء الأحبة معنا في الحياة هو أعظم شيء يُمكن له أن يجعلنا سعداء ، الأحبة في خير ، إذاً أنا بخير .ابتسمتُ وأخبرته أنّ القصة انتهت ، وأنا

في طور الشفاء منها ، فقال وقد بدا لي رجلاً مُتنوّراً:

صديقي ، بعد أن تُوفيَت والدتي ، حسبتُ أنّ الدنيا قد أصبحَت جحيماً حقيقياً ، فأنا وحيد ، ليس لديّ إخوة ولا أخوات ، والدي كثير الانشغال ، وقد ظننتُ أنّ طموحي في هذه الحياة قد أصبح سراباً لا يُمكن أن أصل إليه ، مُراهق يعيش مع والد أضناه فراق زوجته المُفاجئ ، كيف له أن يقوى على متابعة حياته كي يرعى ولده الوحيد؟ هل ترى المشهد يا هادي ؟

-نعم أراه جيداً ، وكيف تجاوزتَ محنتك يا"حسّان"؟

-باختصار شديد ، أردت لنفسي أن أكون ناجحاً وعملتُ بكدّ ، فكان ما أردته .كانت وفاة أُمّي صدمة ، ولكنها كانت بداية جديدة .ليست كلّ النهايات تعني أشياء سيئة ، فبعضها قد يكون بوابة إلى عالم جميل لم تُفكّر في أن تلجه أبداً.

أربع ساعات من الحديث الشائق مع حسان رجل الأعمال الناجح ، صاحب الثروة الكبيرة ، والأسرة السعيدة ، والأحلام المحققة.

-سررتُ بالحوار معك يا"حسّان ،"كنتُ في حاجة إلى كلامك ، فساقني الله إلى هنا ، في حين أنني لم أكُن أُفكّر أن آتي إلى مكان كهذا أبداً.

-سأراك قريباً ، أنا واثق من ذلك ، أنت شابٌ عنيد ، طموح ، وستحصل على ما تُريد.

-شكراً يا صديقي.

وافترقنا من جديد ، والله وحده يعلم ما إذا كنا سنلتقي مُجدداً في مكان آخر. بيد أني تلقيتُ جرعة من التفاؤل والثقة بأنّ الله يخلق من الضيق الفرج ، ومن

المحنة المنحة.

لقد خفف وجودي بين أفراد أسرتي عني وطأة الحزن والألم ، ولكنّ شيئاً في داخلي كام ما يزال يبكي ، بكاء النادم تارة ، وبكاء مَن يعرف أنه جلب البلاء إلى حياته تارة أُخرى ، ثمّ اهتديتُ جلسة تأمل إلى عبارة"كلّ أمر الإنسان خير."

إلى الغرفة ذاتها التي كانت تحتضن آلام المراهقة ، عدتُ مُحملاً بهموم وآلام لم أحسب يوماً أنها ستحدث .بيد أنّ الحياة مُستمرة ، ومع الأيام كان إصراري يزداد أنّ الحياة مسرح كبير ، يؤدّي كل أحد فيه دوره الذي قُدر له.

يرحل أشخاص ويظهر آخرون تأكيداً على أنّ الحياة مُستمرة رغماً عن أنوف الذين يرفضون التعايش مع مصاعبها ، بل الأصح أولئك الذين يجلبون المصاعب إلى حياتهم.

لقد كانت كلّ حروف كلمات الكتب التي قرأتها محفورة في دماغي ، وقد أضافت كلّ تجربة ومرحلة إلى شخصيتي المزيد من القوة ، وإلى إدراكي المزيد من الوعي والفهم.

كان شغلي الشاغل في تلك الفترة هو القراءة حيث لا بُدّ أن أتعرف باللغة العربية على كلّ تلك العلوم والمعارف التي قرأتها باللغة الأجنبية ، كان هناك في منطقة معروفة من المدينة بعض الباعة الذين يشترون كتباً تالفة أو مُستعملة ، فيفترش هؤلاء الباعة الأرض ، ويبيعون تلك الكتب بأسعار رمزية. كانت تلك الأماكن مقصدي كلّ أسبوع ، فأشتري وجبة من الكتب تكفيني عدة أيام فألتهمها في غضون أيام قليلة.

كنتُ أقرأ وأنا على يقين أنّ هذا الزاد ليس مصادفة أن كان مُتاحاً لي ، كانت أُمهات الكتب بين يديّ ، كتب مُتنوعة لملحدين ورهبان وشيوخ ، في التصوف

والحُبّ والألم ، في البحث والتفاؤل والكثير غيرها من العناوين التي وقعَت بين يديّ .في بعض اللحظات وأنا في غمره القراءة والتأمل ، كان ينتابني شعورٌ أنّ ما أقرأه سأعود إلى تعليمه يوماً ما .كنتُ على يقين أنّ هذه المعارف لا بُدّ لها أن تُبصر النور في يوم ما.

لقد أتاحت لي مقاهي"الانترنت "معابر جديدة كي أُتابع قراءة الكتب الأجنبية ، فكانت الكتب الالكترونية روحاً جديدة لأبحاثي ، وتأكيدات لما كنتُ أُفكّر فيه ، وأُدوّنه في مُذكراتي ومخططات كتبي الجديدة.

لقد قادني نهم القراءة إلى نوافذ من النور والذي كنتُ أعلم يقيناً أنه سيأخذني إلى المكان المنشود.

تركتُ كلّ شيء خلفي ، بيد أن هناك أشياء من الماضي كانت تُعاود الظهور في حياتي بأشكال مُختلفة ، وتدلني على أنّ السبب ما زال موجوداً ، وأنني يجب أن أتعامل معه ، ثمّ أودع الموقف أو المرض أو الذكرى بامتنان ومحبة على ما علمتني إياه في الحياة.

تعلمتُ البحث عن أسباب ما يحدث في حياتي ، وتعلمتُ أن أربط البرامج المتوارثة بما يحدث في حياة الإنسان ، وكانت هذه المسألة خير معين لي في دوري كمُعلّم لاحقاً.

لقد أصبحت المساجد أنيس وحشتي ، وصارت مجالس العلم مقصدي ، ورحتُ أبحث في كل الوجوه عن مُعلّمي الروحي.

المعلّم الحقيقي

دُعينا إلى مجلس ذكر في أحد المساجد ، حيث ألقى الشيخ خطبة جميلة تحمل معان مُؤثرة ، ولكنني لم أشعر بذلك الوهج الداخلي الذي يجتاحني حينما أقابل شيخي السريّ.

ظننتُ أنّ عامل الزمن وتغيّر الظروف هو الذي لم يعُد يسمح لي بالمشاعر ذاتها .فالإنسان يتغيّر كل يوم ، وبين ساعة وأُخرى ، ترانا تتأرجح أحوالنا من حال إلى حال.

طلبتُ جلسة خاصة مع الشيخ لعلي أحظى منه على بعض الأنوار .بيد أنّ لقائي معه كان كالصفعة على وجهي .لم أشعر بأيّ شيء يتحرّك في داخلي ، كنتُ أسمع كلماته وكأنها قرقعة فوق طبل أجوف .كان يُحاول جذبي ، فيذكر الأنوار الإلهية والتجليات الرحمانية بصوته دون حضور أو خشوع .كان وجهه يسود كلما استبكى !بقيتُ جامد الملامح وكأنني أُشاهد تمثيلية.

أدرك ذلك الرجل أنني غير مُقتنع به كمُعلّم ، فراح يُدرج لي سلسلة العلماء الذين تلقّى عنهم علومه ، ولكني لم أشعر بأيّ كلمة قالها.

بقيتُ دونما تأثر ، ونمتُ وأنا أُفكّر أنني سأرجع إليه ، فلعلّ قسوة قلبي جعلتني لا أشعر بكلامه ، ولعلّ عودتي في الغد ستُغيّر من حالي.

كان البدر في تلك الليلة مكتملاً ، يتباهى في السماء كقطعة من النور تكسر حدة الظلام .إستلقيتُ على سريري حيث ضوء القمر يتسلل نحوي ، بينما كنتُ

هائماً أُفكّر .ثمّ ما لبث ضوء القمر أن تكاثف على نحو كبير ، وازدادت غرفتي اشراقاً ، فقمتُ من سريري مذعوراً ، وإذا بالشيخ الحبيب يظهر أمامي.

ركضتُ إلى حضنه الجميل وعانقتُه بحُبّ ، فغمرني بحنانه المُعتاد.

-سيّدي ، لم تزرني منذ فترة بعيدة ، وشوقي إليك كاد يخنقني.

-نحن معك يا هادي ، إنك لا تخطو خطوة في حياتك إلا ونحن إلى جانبك.

-لقد ابتلعتني الحياة ، وأنا في حاجة إلى رفيق للدرب ، يحنّو عليّ ، يُوبخني أحياناً ، يشدّ من أزري ، أنا أشعر بالوحدة سيّدي.

-افتح بوابة قلبك يا ابن الأكابر حتى تتدفّق حياة الحُبّ إليه.

-سأذهب إلى شيخ المسجد غداً ، وألتزم في حلقة العلم معه.

-أما أخبرتكَ بصيرتك أنه مُعلّم زائف ؟ حسبتُك ستتبع حدسك الصادق.

-ظننتُ أن نفسي وأناي تمنعني من الالتحاق بحلقته والالتزام معه ، وأنّ سواد قلبي أبعد عني الإحساس بنور قوله.

-لا نور بين يديه ولا في قلبه ، صدّق احساسك ، فالمُعلّم الحقيقي هو مَن تُحبّه دونما إكراه ، ومَن تشعر في حضرته أنه ينبع بالحكمة ، ومَن يتواضع لك وكأنه مُريد بين يديك .يأتي المُعلّم الحقيقي عندما يكون التلميذ جاهزاً ، ولن يكون هناك فاصل ولا ثانية بين هذين الأمرين .إنّ أبواب المُعلّم مفتوحة ، ولكنه لن يظهر ما لم تكن جاهزاً للتقبل والاستسلام.

عليك أن تُتقن لغة الصمت ، وعندما تجد المُعلّم الحقيقي عليك أن تجلس عند رجليه دون أن تسأله عن أيّ شيء ، صامتاً ببساطة ومُنتظراً ، لعلّ القلب يحصل من القلب على انسجام وتوافق ، ولعلّ كلّ شيء يرقص في قلب المُعلّم

يبدأ بالرقص في قلبك.

إنّ المُعلّمين موجودون من أجل المساعدة ، وهم يُشيرون إلى الطريق ، ولكن دون أن تتعلّق بهم ، فالتعلّق لن يسمح لك بالانخراط في علاقة عميقة ، والعلاقة ما بين المعلم والمُريد هي الأعمق بين العلاقات ، بل إنها أعمق من العلاقة بين المُحبّ والمحبوب.

إنّ استسلام الطالب ومسؤولية المُعلّم هي جسر .حالما تكون قادراً على الاستسلام ، سيظهر المُعلّم .إنّ المُعلّم موجود ، ولكن أين هو المريد الصادق ؟ سوف يظهر المعلم في المكان الذي حدث فيه الاستسلام ، عندما تُصبح فارغاً وغير مُمتلئ بأيّ شيء ، تنهمر عليك القوة الروحية وتملؤك.

يجب أن تُسلّم نفسك إلى المُعلم ، وهو يُعيد إليكَ وجودك الداخلي ، وجودك الحقيقي ، ويرمي منك الأشياء التي لا تمتّ لداخليتك وكينونتك بصِلة ، ويُخلّصك من الأشياء التي لم تكن تمتلكها في الأصل ، ويُعطيك الشيء الأصلي الذي كنتَ تمتلكه دائماً دون أن تُدرك وجوده أبداً .إنّ المُعلم الحقيقي هو الذي يُعطيك ما أنت عليه ، ويرمي منك ما لستَ عليه.

إنّ المُعلّم الحقيقي لا يهتمّ ولا يقلق بشأن معاييرك ، بينما يتحرّك المُعلّم الكاذب دائماً وفقاً لمعايير طلابه .إنّ البحث الحقيقي ليس عن المُعلّم الحقيقي ، وإنّما البحث الحقيقي هو عن الباحث الحقيقي .إذا كان بحثك حقيقياً وأصيلاً ، فلن يستطيع أيّ مُعلّم كاذب أن يخدعك .أبقِ بحثك حقيقياً وسوف يسقط المُعلّمون المُزيفون مع الوقت.

-هل سأجده يوماً ؟ أشعر بذبول روحي وجفاف أحاسيسي.

-يجب أن تنتظر حتى يحين الوقت ، ويجب أن يكون انتظارك نقياً دون

أسئلة ، وهذا الانتظار سيُحضِّرك ويُجهِّزك إلى الاستسلام الكامل .لا يزال الوقت مبكراً ، ولكنه آتٍ لا محالة.

أمسك الشيخ بيدي وسحبني بقوة وشعرتُ أنني طرتُ بعيداً في السماء.

أخذني إلى مكان بعيد وأنا في دهشة ألجمت لساني وأرعدت أطرافي ولكن سرعان ما أبهجتني الرحلة.

بالقرب من بيت عربي في أحياء المدينة القديمة قال لي" :هنا يعيش مُعلّمك الروحي ، شيخك الحبيب.

هذا هو جبل الطور ، حيث كان الأنبياء ، ولك موعد مع الله هناك.

رفرف قلبي كأنه عصفور بجناحين يرغب في الخروج من سجنه ، وحلقتُ عالياً كأنني نسر يُلامس الغيوم عندما قال لي:

هذا هو المسجد الأقصى ، أحسبك مُصلياً فيه بإذن الله.

هذه هي المأذنة العروس في دمشق ، وأحسبك من جنود عيسى عليه السلام.

عاد بي إلى غرفتي واستلقيتُ نزولاً عند رغبته ، وقام بجلسة علاج لي ، في كلّ مكان كان يضع يده عليه كنتُ أشعر بتيار نور يدخل إليه ، ورأيتُ سواداً كبيراً يخرج من كلّ جسدي لا يقبع في الغرفة إلا بضع ثوان ، وكأنه شياطين تهرب من حضرة الشيخ المُبجّل.

ثمّ قال شيخي :آن الأوان كي تُصبح مُعالجاً ، كما أُعلّمك وكما أفعل ، بسم الله وبالله وعلى الله وإلى الله."

إستسلمتُ إلى نوم عميق وكأنه غيبوبة ، كانت الأحلام فيها أولياء وصالحين

قرأتُ عنهم وآخرين ما كنتُ أعرف عنهم أيّ شيء ، حتى رأيتُ شلال ماء ليس بالماء ، كان شلالاً من الأنوار يتدفّق ، وإلى جانبه كأس مُتلألئة من اللبن الناصع ، وسمعتُ صوتاً يقول:

"إشرب اللبن ، وكُن من الشاكرين."

شربتُ كأس اللبن وكأنه عسل مُصفّى ، وقد دخل إلى كل خلية في جسدي بلسماً رطباً سائغاً مريئاً.

يا ليتني لم استيقظ ولم أفتح عينيّ لأرى هذا العالم البعيد كلّ البعد عمّا أتمناه ، ولكنّ صوتاً قوياً وحقيقياً في داخلي كان يقول:

"هذا عالم العمل ، والجدّ والاجتهاد ، عالم الإصلاح ، عالم التلقي ، عالم العطاء .لقد أوجدك الله في هذا المكان بالتحديد لأنّ دورك هنا ، ويُرسلك إلى حيث يجب أن تكون فاعلاً لدورك مُستسلماً لإرادته."

كنتُ أشعر بالسلام المُفعم بالحُبّ والسعادة يغمر كلّ أوردتي ، تألقَت روحي وعلمتُ أنني صاحب رسالة ، ويجب عليّ أن أقوم بها.

تزوجتُ من جديد ، وكان لزوجتي دور بارز في استقراري المهني ، وعملتُ أيضاً في مجال اختصاصي الأكاديمي وكانت أياماً جميلة ، زرعتُ فيها أول لبنة لي في بلادي للعلوم الروحانية والوجدانية.

علاج التعلّقات

في يوم غريب لاحت لي بارقة السفر خارج بلادي مرة أُخرى ، ولم أكن رافضاً للفكرة .إنّ ظروف العمل هنا ليس كما يجب ، وكنتُ دائم الطلب والدعاء أن يُوسّع الله في رزقي ، ولكنني لم أكن مُدركاً أنّ الرزق لم يكن مالاً وحسب.

سافرتُ والخوف والرهبة من المعابر الحدودية يُسيطر عليّ ، وفي بداية الطريق وقفنا كي نملأ خزان وقود السيارة ، فرأيتُ رجلاً لطيف الشكل ، جميل الملامح ، يلبس ثوباً عربياً ، توجّه نحوي وقال لي" :يقول لك الشيخ ، إدفع صدقة عندما تصل إلى كلّ معبر حدودي."

ثمّ مضى تاركاً وجهي ممتلئاً بآلاف إشارات الاستفهام .ركبتُ السيارة وفعلتُ ما تلقيتُ من إشارة ، وليس غريباً أنّ الطريق كان أيسر من دخولي إلى حارة في مدينتي ، فالصدقة وقود كلّ عمل ، وأساس ثبات أيّ أمر."

كنتُ أتساءل لماذا عليّ أن أترك بلادي مرة أخرى؟ وقد أتاني الجواب :أنت في طور البحث والعطاء ، إغتنم فرصتك.

عملتُ بكدّ وعناء طوال أعوام طويلة ، واتسعت القاعدة التي أسستها في بلادي ، وأصبح حولي مئات من الطلاب ، وكانت المحبة الغامرة تُحيط بي في كلّ مكان أذهب إليه.

كانت أول تجربة علاج لي ناجحة جداً ، وشعرتُ حينها بيد شيخي تعمل معي دعماً وتأييداً.

في أثناء رحلتي في عالم العلاج ، رأيتُ ما لم لأتعلمه وأراه لولا هذه التجربة ، لجأتُ إلى توعية المريض في جلسات العلاج التي كنتُ أستجوب المريض فيها وأضع إشارات حول الأمور التي سببت نشوء المرض والحالة النفسية التي يُعانيها في اغلب الاحيان.

كنتُ أظنّ أنّ الفقر هو سبب جميع الأمراض ، ولكنّ الأيام أثبتت لي في أثناء جلسات العلاج أنّ الأثرياء يُعانون من أمراض أشدّ فتكاً من أمراض الفقراء ، وقد سميتُها لاحقاً بأمراض الترف.

-أشعر أنني لا أقوى على الحراك ، كلّ ما حولي لا يُدخل لي السعادة ، زوجتي في واد وأنا في واد آخر.

-هل تعمل ساعات طويلة ؟

-أقضي مُعظم وقتي في الشركة ، حتى في الإجازات ، لا أستطيع أن أترك العمل للموظفين ، فكما تعلم الكلّ يتربص بك حتى تغفل عينك ، كي يبدأ في سرقتك دون رحمة ، لذا عليّ أن أكون حاضراً على الدوام ، مُتربصاً واعياً لكلّ ما يدور حولي.

-ماذا تفعل زوجتك في اثناء غيابك ؟

-لا أبخل عليها بالمال ، تذهب للتسوّق وإلى المطاعم مع صديقاتها ، لديها كلّ ما تتمناه ، وهي لا تريد إلا المال والأشياء المادية ، لقد أنفقت في العام الفائت مبلغاً كبيراً عندما سافرت مع أختها إلى"ماليزيا ."أنا أعلم أنها تملك المال الكافي كي تشتري سعادتها!

-سمعتُ أنك كنتَ خارج البلاد منذ مدة ، فهل هو سفر من أجل العمل ؟

-آه ، لا أُخفيك سراً ، أذهب في كلّ عام إلى"لاس فيغاس "وأُنفق هناك مبالغ يُمكن أن تُطعم مئات العائلات سنة كاملة ، أُنفق أموالاً طائلة على الخمر والنساء والقمار ، ولكن في السنة مرة واحدة.

بعد جلسات استماع عديدة ، تبيّن للرجل أنّ المرض الذي يُعاني منه هو نتيجة التعلّقات المُتعددة في حياته ، التعلق بالمال ، التعلق بالعمل ، التعلق بالنساء ، التعلق بالمصير المزدهر.

كان يشعر في قرارة نفسه أنه مطرود من رحمة الله ، لأنه يُعاقر الخمور ويشتري النساء ويلعب القمار ، فما عاد يُدير وجهه نحو القبلة ، بل أصبح يؤكّد لنفسه أنه هالك لا محالة ، فانصرف إلى الغوص في عمله ، إلى أن كره ذاته ، ومن هنا بدأ العلاج.

كان لا بُدّ له أن يُحبّ ذاته مهما كانت أحواله سيئة ، فالحُبّ هو الدواء الذي سيُنجيه من السرطان الذي بات يمدّ يديه كي يلتهم كل أحشائه .كان لا بُدّ أن يعلم أنّ الإله أرحم مما يظنّ بكثير !كان لا بُدّ أن يستمتع بالحياة ويجد السعادة الحقيقية في داخله.

في لحظة تصالح مع الذات ، قرر الرجل ان يعود كي يُحبّ ذاته ، فوجد الفارق الكبير ، وبدأ في التغيّر ، وصار يستجيب للعلاج ، وفي غضون ستة أشهر من بداية العلاج تماثل الرجل للشفاء.

***

ذات يوم دخلتُ إلى بيت حسبتُه قطعة من الجنة ، ولكن صاحبته لم تخرج من غرفتها طيلة سنة كاملة ، كانت تخاف من كلّ شيء ، وتطوّر هذا الأمر حتى أصبح وسواساً مُرعباً أبعدها عن ذويها وأهلها وأبنائها.

في أثناء استجواب المريضة ، تبيّن أنها تعرّضَت لتحرش جنسي عندما كانت في سنّ المراهقة من قبل خالها ، الذي كانت تُكنّ له كلّ الودّ والحب ، ومع مرور الوقت ، اغتصبها أكثر من مرة.

لم تكن تقوى على البوح بما يجري ، ولم يكن من المُمكن أن يُصدّقها أحد ، بينما كان خالها صاحب النفوذ بين أفراد الأسرة ، ولو أنها تحدثت لكان ذلك اليوم آخر يوم في حياتها.

لقد استمرّ الألم سنوات عديدة ، ثمّ تزوّجت زواجاً تقليدياً ، ولم تلبث أن انفجرت الأمور بينها وبين زوجها من خلال كرهها ورفضها للجماع .لقد ضربها زوجها مرات عديدة دون أن يُحاول أن يفهم خلفية ما يحدث معها ، ثمّ أصبحت تنعزل أكثر فأكثر حتى أُصيبت بمرض خطير في الجلد ، بدأتُ العلاج بمحو تجربة التحرّش الجنسي من الماضي ، وما أكثر الحالات التي رأيتها وكان سببها التحرش الجنسي ، وليس فقط بالنساء بل إنني وجدتُ رجالاً قد تعرضوا إلى ذلك في طفولتهم .بعد محو التجربة من العقل الباطن عملتُ على اعادة المريضة إلى حياتها من خلال التقبل والرضا ، وزيادة المشاعر الايجابية ، ورؤية الجمال في واقعها ، وزيادة الايجابية في تفكيرها ومشاعرها.

***

ماذا أقول عن جلسات العلاج ، وماذا أتحدّث ، وأصل الأمراض هي تلك الحالة النفسية التي يتعرّض لها الإنسان ، عندما ينتقل إلى عالم المشاعر السلبية ، والتفكير السلبي.

إنّ قسماً كبيراً من الأمراض يعود في جذوره إلى التعلقات التي تظهر عند الإنسان:

هناك من يتعلّق بالماضي ، فيجذبه إلى حاضره في كلّ يوم ، وتضيع الأيام الحالية من بين يده ، وبالتالي يفقد السيطرة على مستقبله ، وهناك من الناس من يُفكّر بالمستقبل ، فيتعلّق به ويُصبح دائم العيش في أحلام اليقظة ، ولا يتمكّن من عيش لحظات عمره الراهنة فتضيع حياته أيضاً بين سأفعل ، سأحصل ، سأجني ، سأفعل.

هناك من يتعلق بالأشياء المادية ، فيتعلّق بسيارته مثلاً ، أو لباسه ، أو وجود أثاث معين في بيته ، أو شراء تلفاز ، أو هاتف جوال من نوع مُحدد ، فتراه يُعاني دائماً من مشاكل فيما يشتريه ويظنّ أنه يتعرض للغش دائماً ، بينما يكون تعلقه هو سبب أعطال كلّ الأشياء المادية حوله ، ومهما غيّر من الأشياء المادية فلن يُرضيه أيّ شيء ، لأنه يُريد دائماً امتلاك الأفضل والأكمل ، ممّا يؤدي إلى عدم اشباع رغبته في امتلاك الماديات ، أو فقده الدائم لها في حوادث معينة.

كم رأيتُ من امرأة مُتعلّقة بطريقة لباسها وبطراز فستان مُعيّن من شركة عالمية ، وعندما اشترته بثمن باهظ من أجل مُناسبة ، إحترق بعقب سيجارة كانت تُدخنها ، ولم تستطع أن تلبسه في مناسبتها ، وكم من شخص تعلّق بسيارته ذات طراز حديث ، حتى إذا ما اشتراها وقع في أول مرة يركبها في حادث سيارة كاد أن يُودي به.

نعم ، كم من تعلّق أودى بصاحبه إلى الهلاك ، فهناك من تعلق بالمال ، فخسره ، وهناك من تعلّق بالمال قبل وجوده فبقي طوال عمره فقيراً ، وهو يحلم بوجود المال ولكن لا يأتيه أبداً.

-مُعلّمي هادي ماذا يحدث لو تعلّق الإنسان بالمال مثلاً؟

-أيها الحبيب ، تظهر المشاعر السلبية مع المُنافسين ، ويغيب عن ذهن الإنسان أنّ الرزق مقسوم ، وكلّما ازداد استياؤه وشكواه ، زاد ارتباطه بالمال ، وزادت عدائيته ، وعندما يصل هذا الارتباط مع العدوانية المرافقة إلى اللاشعور ، يكون من الضروري إيقافها بسرعة من خلال أربعة خيارات :الأول ، طوعي ، وهو أن يبدأ الإنسان في مُساعدة الأخرين ، واعطاء المال لمَن يحتاج ، ثمّ إذا لم يفعل هذا ، يبدأ الخيار الثاني :يفقد الإنسان المال ، فيحتال عليه أحد أو يسرقه ، فإذا انتبه إلى تعلّقه توقفَت الأمور هنا ، بينما إذا اشتكى وغضب ، وأصبح يحتقر من غشّه أو سرقه ، يبدأ الخيار الثالث من خلال الإصابة بالأمراض والمآسي ، فإذا لم يستطع الإنسان داخلياً أن يتطهّر من تعلّقه ، يبقى الخيار الأخير في التطهير وهو الموت ، وتحصل الكارثة.

قد يتعلّق الإنسان بالمال فتظهر لديه صفات سلبية مثل البخل ، والاستياء ، والحقد على من يُنافسه ، وقد يظهر الحسد أيضاً ، أو عدم الرضا وكلّها صفات سلبية مُدمّرة للإنسان .قد تُعطيني الحياة ظروفاً بعيدة عن المال ، وقد أقع في ديون متراكمة ، وقد يكون لديّ المال فأخسر كلّ شيء ما عداه ، فأخسر أسرتي وأولادي خلال انشغالي الدائم في زيادة هذا المال.

يجب أن يفهم الإنسان أنّ المال هو في الوقت ذاته خير وشر ، وقد يكون من الخطر جداً على انسان أن يمتلك الكثير من المال ، بل يجب عليه أن يُفكّر بالأمور الروحية فقط ، بينما يحتاج شخص آخر أن يمتلك المال كي يرتبط بالأمور الدنيوية ، ويبقى المعيار الأهمّ هو أنّ المال وسيلة فقط ، وهو حتماً ليس غاية ولا هدفاً.

هناك مَن يتعلّق بالشراء في حدّ ذاته ، فيشتري ما ينفع ومالا ينفع ، وقد

يكون برنامج تعلّقه مُرتبطاً بحالة الفقر التي كان فيها سابقاً ، حيث لم يكن قادراً على شراء شيء ، حتى إذا ظهر المال في حياته راح يشتري ويشتري دون توقّف في محاولة التعويض عن عقدة النقص التي لديه.

هناك من يتعلّق بالجنس قبل وجود الشريك فتنهار حياته بين الصور الاباحية والأفلام الجنسية ، فلا يُحقق دراسة ولا عملاً ، وتكون العواقب وخيمة عليه وعلى شريكه عندما يتزوج ، وقد تتعرض البنت المُتعلّقة بالجنس لحوادث اغتصاب أو تحرش جنسي ، بسبب تفكيرها المُستمرّ بهذا الأمر ، وقد يكون سبب عدم زواج الشاب أو البنت هو تعلّقه الشديد بالجنس.

هناك مَن يتعلّق بالجنس ، فتأتيه زوجة أو يأتيها زوج غير مُهتم بالجنس مُطلقاً ، أو تخونه الزوجة أو يخونها الزوج ، أو يُصاب أحدهما بمرض لا يقدر معه على مُمارسة الجنس فيدفع الأموال الطائلة كي يستعيد مقدرته الجنسية ، وقد تُصاب المرأة بالعقم ، أو تتحول إلى عاهرة ، وقد يرمي التعلّق بالجنس الإنسان إلى الشذوذ الجنسي ، وكلّها أمور لا يُمكن الفكاك منها ما لم يفهم الإنسان أنّ الجنس وسيلة إلى شيء أكبر.

قد يتعلّق الإنسان بالطعام والشراب فتقتله التخمة ، أو يُصاب بسمنة لا يجد لها علاجاً ، وما هؤلاء الذين يتقيؤون ما أكلوا كي لا يُصابوا بالسمنة إلا مثال شنيع عن التعلّق بالطعام .تعود أسباب التعلّق بالطعام إلى أشياء كثيرة قد يكون أحدها الحرمان من الأكل في فترة ، وقد يكون الافراط في الأكل مُحاولة لتفريغ الاجهاد والتوتر ، ولكن ما لم يتوقّف الإنسان عن تعلّقه بالطعام ، الحلويات مثلاً فسيُصاب بمرض يمنعه كلياً عن أكل ما يتعلق به"السكريات في مثالنا ،"وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلّ أنواع الأطعمة.

-مُعلّمي هادي كيف يُمكن علاج التعلّق بالأمور المادية مثل الطعام والشراب والملذات الجنسية ؟

-أيها الحبيب ، هذه الأمور تربطنا بقوة إلى الأرض ، ولذلك يجب الحدّ منها تدريجياً ، بل يجب الامتناع القسري عنها أحياناً .إنّ الصيام والامتناع عن شهوات الطعام والشراب والجنس يُعطي روحانية مُعينة ، ولكن إذا أضفنا الحُبّ إلى كلّ هذه الأمور فلن تُؤذينا أبداً ، ولن نصل إلى التعلّق بها.

-مُعلّمي هادي ، كيف أستطيع أن أعرف أنني مُتعلّق بشيء أو بشخص ؟

-أيها الحبيب ، بكلّ بساطة أغمِض عينيك ، وحاول أن ترى ما شعورك لو أنّ هذا الشيء زال من حياتك ، أو ذهب هذا الشخص ؟ إذا كان شعورك هو التسليم لله فهذا حُبّ ، وإن كان شعورك هو الغضب ، والاعتراض ، وشعور الفقد الشديد ، فهذا يعني أنّ حُبّك قد تحوّل إلى تعلّق.

لا تنسَ أنّ الإنسان قد يتعلّق بما يكره كما يتعلّق بما يُحبّ ، فالخوف من شيء أو العدوانية تجاهه ، أو كراهيته ، أو الاستياء منه ، هو رابط" تعلّق "لا تستطيع الفكاك منه ، بل قد يكون هذا التعلّق أقوى بكثير من تعلّق الحُبّ والاعجاب.

إنّ ظهور العدوانية هو تحديداً إشارة إلى أنّ الإنسان أصبح يتعلّق بالأمور الدنيوية ، وكلّما تعلق الإنسان بالماديات ، ازداد تنافسه مع غيره على امتلاكها ، وظهرت العدوانية تجاه الآخرين ، بل أحيانا تجاه الذات :لماذا لستُ قادراً على تحصيل ما يُحصّله غيري ؟!

-مُعلّمي هادي كيف لا أتعلّق لا عن طريق فرط المحبة لشيء ولا عن طريق كراهيته ؟

-يجب ألا ينتقل الإنسان من تطرّف إلى آخر، يجب أن أتأمل في حكمة وجود الأشياء أو عدمها في حياتي، فوراء الوجود هناك المُوجد سبحانه، فلماذا نقف مع الأشياء؟ إنها ظواهر فقط لأشياء أعمق، وعندها تُصبح استخداماتنا للأشياء عبادة، ولن نطلب شيئاً إلا ويكون لدينا.

كلّما كانت علاقتنا قوية مع الإله، وكانت محبته هي المُطلق في حياتنا، مُنحنا خيرات مادية دنيوية أكثر .إنّ الإنسان الذي يُعطي الثروة الروحية أفضلية مُطلقة يُمكن أن يكون غنياً دائماً.

إنّ التعلق بالماديات أمرٌ ظاهر ويُمكن الاعتراف به ورؤيته بسهولة، بينما التعلّق بالأشخاص شيء يصعب الاعتراف به، بل غالباً ما نُغطي تعلّقنا بالعلاقات وخصوصا العلاقات الأسرية بمفاهيم الواجب والتضحية.

عندما يتحوّل حُبّ شخص آخر إلى تعلّق، فإنه يُمكن أن يُدمّر الصحة بل وحتى مصير الإنسان المُتعلِق والإنسان المتعلَق به، فيتحوّل الحُبّ والعاطفة والمودة إلى أداة قتل، ما لم يُحدد الإنسان الأولويات، ويُعطي المقام الأول إلى محبة الإله.

إنّ التعلق بالعلاقات مع الناس وخصوصاً المُقرّبين منهم قد ينتهي بالمشاكل والخيانة والشجارات، وقد يكون هذا التعلّق من باب الحرص على المكانة في المجتمع، لأنّ العلاقات مع الناس أصبحَت جزءاً من الأنا المزيفة. بيد أنه كلّما تعلق الانسان بعلاقاته مع الناس، كانت علاقاته أسوء وتعرّض للاستغلال والاضطهاد والسخرية .إنّ الإنسان المتعلق بالعلاقات يبدأ بلوم الناس حوله، وإلقاء التهم عليهم بالتقصير معه، ومطالبتهم بالاعتذارات، بل قد يبدأ هو بقطع علاقاته مع مَن حوله لأنهم ليسوا على مستوى العلاقة معه.

كلّما كانت العلاقات مُستقرة أكثر ، كانت امكانية التعلق بها أكثر ، وأصبح الإنسان عدوانياً أكثر ، وزاد التعلّق وزادت معه الغيرة ، والخلافات ، والهجر ، وقام الإنسان المحبوب بالخيانة ، والابتعاد ، والاختلاف معنا.

من أصعب التعلّقات في العلاقات بين الناس ، علاقة الزوج بالزوج والعكس ، حيث يُؤثر التعلّق ليس فقط على الزوجين وإنما على أطفالهما أيضاً ، وينتج عنه مشاكل كثيرة من اضطهاد المرأة وظلم الأطفال ، وعدم الاحترام من الطرفين ، وتبادل الاتهامات ، ورؤية النقص في الطرف الآخر ، وعلى الأغلب يُؤدّي التعلق الشديد إلى انفصال الزوجين ، ولعل أهمّ شيء يظهر مع التعلّق هو الغيرة الشديدة ، والتحكّم والسيطرة ، والتي تُؤدي إلى كثير من العدوانية ، ثمّ تُؤدي إلى الغضب ، ثمّ الاستياء والكراهية ، ثمّ يتحوّل كلّ هذا إلى برامج تدمير للزوجين والأطفال.

إنّ تعلّق الرجل بالمرأة فد يجعلها تخونه أو تحتقره ، وقد يكون الأمر كذلك إذا تعلّقَت المرأة بالرجل ، فقد يخونها. أو يحتقرها ، ويُذلّها .بينما كلّما فهم الزوجان أنّ السعادة الحقيقية في محبة الإله ، وليس في حُبّ الشريك ولا في حُبّ العائلة ، كانت لديهم فرصاً أكبر في إنجاب أطفال أصحاء.

يتعلّق الأبناء بالوالدين أيضاً ، ويتعلق الوالدين بالأبناء ، ويُمرر الوالدين عادة البرامج السلبية ، ثمّ في فترة المراهقة يبدؤون يُعانون من هذه البرامج التي مرروها لأولادهم ، لأنّ الأولاد غالباً ما يزيدون منها .من أصعب التعلّقات في التأثير هو تعلّق الأُمّ بالجنين في فترة الحمل ، فهذا يُسبب المشاكل والأمراض لها وللجنين .بل إنّ تعلق الأنثى بالإنجاب في حدّ ذاته ، قد يجعلها لا تُنجب ولو أنجبت فقد يكون لدى الطفل مشاكل جسدية ، أو قد تتعرّض إلى مشاكل مع

زوجها ، ورُبّما تصل إلى الطلاق معه.

قد تُؤدي التعلّقات بأحد الوالدين لاحقاً إلى مشاكل زوجية شديدة ، كتعلّق البنت بأبيها وصورته المثالية عندها ، أو تعلّق الزوج بأمه وصورته المثالية عنده ، وقد يكون التعلّق عكسياً أي يكره صفات في أمه فتأتيه زوجة بهذه المواصفات نفسها ، أو تكره صفات في أبيها فيأتيها زوج بهذه المواصفات.

قد يتعلق الإنسان بمن يُعالجه ، وقد يتعلّق بالمُعلّم ، كمصدر معلومات أو مصدر روحانية ، وعندها سيفقد المُعالج لا محالة ، ويفقد مُعلّمه.

قد يتعلق الإنسان بعمله ، وهذا يعني أنه لا يرى نفسه إلا من خلال عمله ، ويصل إلى إدمان العمل وهي ظاهرة مرضية ، ولو عرضَت لهذا الإنسان ظروف مرضية مثلاً ، فاضطرّ إلى التقاعد أو الاستقالة ، فقد تسوء صحته ، وقد تتأزم أموره على نحو كبير .قد لا يجد عملاً ثابتاً بل ينتقل من عمل إلى عمل أسوأ ، وسيجد دائماً أنّ عمله فيه الكثير من المُنغصات والعقبات .قد يحتقر الإنسان المتعلق بالعمل كلّ مَن يعمل على نحو سيء ، وقد يكره نفسه أو الآخرين ، لو لم يكن هناك انجاز في العمل ، وقد يشتكي دائما من كلّ مَن يُعرقل العمل ، وكلّما قام بذلك أكثر ، كانت المآسي أكبر في العمل.

قد يتعلّق الإنسان بالتنظيم والترتيب ، فيكون كل ما يُحيط به في كلّ مكان فوضى كبيرة ، وقد يتعلق بالقدرات والامكانيات والذكاء ، وقد يتعلق بالروحانية والحكمة ، فيتكبّر على مَن لا يمتلكها ويحتقرهم ، فتتحوّل حكمته وقدراته إلى أشياء شيطانية تخدم الشر ، لأنه يرى فيها غاية وليس وسيلة تُساعد على تراكم الحُبّ تجاه الإله.

إنّ التعلق بفكرة ، أو موهبة معينة"كالشعر والموسيقى والرسم "أو نظام

معين أو دين معين يُؤدي إلى التعصب ، ويُحول الغاية النبيلة من هذه الأشياء الروحانية إلى شيء مُدمّر وقاتل ،.فتظهر الإخفاقات الكبرى ، أو يظهر مَن يُعرقل تحقيق هذه القدرات.

عندما تُصبح القدرات هدفاً عند الإنسان في الحياة ، يبدأ تكبّره يتنامى بسرعة ، فإمّا أن يُقتل ، أو يحصل على تشوهات ، أو يُصاب بمرض خطير ، أو تتدمّر حياته كلّها .وعندما يتعلق بإبداعه سيكون عليه أن يتخلّى عن ذلك الإبداع ، أو يتخلّى عن الأسرة والحياة الهادئة المُستقرة ، وقد يُغيّر كلياً من توجهاته الجنسية.

قد يتعلّق الإنسان بالكمال ، فيحتقر عدم الكمال في غيره ، ويشعر بنفسه أفضل من الآخرين ، وعندها يُصبح الإنسان متكبراً ومعتداً بنفسه ، وعدوانياً ، مما يجعل كل ما حوله يُشير إلى نقصه وعيوبه بعدوانية شديدة أيضاً.

قد يتعلّق الإنسان بالمصير الرائع والمستقبل المزدهر ، وهذا يعني أنه لا بُدّ من تحطيم هذا المستقبل ، لأنّ التركيز على المستقبل والتعلّق به ، يعني أن يتصارع برنامجي أو خطتي مع برنامج الكون ، مما يعني الفشل التام .لو أصررتُ على شيء في المُستقبل وأعلنتُ تمسّكي به وتشبثي من خلال تفكيري الدائم به وتركيزي عليه ، فسيتحوّل هذا الاصرار إلى طاقة فعّالة تتسرب باستمرار إلى المستقبل ، وهذا يعني أن تضيع فرصة الحاضر في التحضير لهذا المستقبل ، والمصيبة الأكبر لو كان ما أريده يتعارض مع البرنامج الكوني الشامل ، فلا صراع ناجح مع الكون ، وأيّ مُحاولة للصراع تُنذر بمخاطر جسيمة والموت في ظروف سيئة جداً.

ماذا يعني المصير الرائع ؟ إنه تحديداً ما يُعتبر في عيون المُحيطين السعادة ،

والأهمّ، إمكانية تحقيق ما أنت تعمل من أجله، وكلما كانت الحكمة في الإنسان أكثر، كان من السهل عليه أن يُسيطر على الوضع حوله ويُحقق رغباته ويتمتّع بمُستقبل زاهر، وفي هذا يكمن الخطر الكبير :كلّما سيطرنا على الوضع أكثر، وشعرنا بقوة أننا نتحكّم به بقوة، يبدو الوضع وكأنّ الخلية تبدأ بفرض إرادتها على الجسم، انطلاقاً من احتياجاتها وأهدافها الخاصة، ويبدأ تشوه البنية الروحية، ولكي يتمّ إنقاذ الإنسان، لا بُدّ من انهيار الوضع حوله، وتبدأ أشياء غير منطقية وغير واضحة في الحدوث، ويبدأ الإنسان في فقد السيطرة على الوضع.

قد يتعلّق الإنسان بالروحانيات، فيحتقر الأشخاص اللئيمين والدنيئين، ويكره مَن يتعامل معه بشكل غير مستقيم، وهو لا يدري أنه متعلّق بالصفات الروحية، ولكي يتمّ انقاذ حياته وصحته، يلتفّ حوله أناس يتعاملون معه على نحو غير شريف، أو يتهمونه بعدم الاستقامة.

عندما يكون لدى الإنسان تعلق بالصفات الروحية من الطبيعي أن تضطره ظروف الحياة إلى مواقف مُحيطة تُقلل من تعلّقه، فيُحيطه أناس عكس الصفات التي يُحبّها مُطلقاً، أو قد يضطرّ هو أن يتعامل مع الناس عكس ما يُحبّ من الصفات الروحية" الطيبة، التسامح، الخير "وبالتالي أيضاً يقلّ تعلّقه الذي لو زاد عن الحدّ المسموح لأدّى إلى موته.

إنّ الايمان بالله حتى يجب ألا يكون هدفاً، وإلا أدّى إلى التطرف الديني، لأنّ المُتعلق يبدأ في احتقار مَن لا يُؤمن بالإله، ويكره مَن يهين أحاسيسه الدينية، وفي هذه الحالة فد يتحوّل المؤمن إلى مُلحد مثلاً.

إنّ التعلق بالروحانيات أو الحكمة يعني أن نكون مُعجبين بالوعي وسائرين

على دربه ، وفجأة تلعب معنا الأنا المزيفة لعبة أنّ كلّ الناس جاهلون ونائمون في ظلمات اللاوعي ، وأننا أفضل منهم .إنه ازدراء للآخرين من منطلق الروحانية والحكمة ، وهو هاوية يسقط فيها الإنسان من حيث لا يدري .هذا التعلّق قويٌ جداً ويمتدّ تأثيره طويلاً، ويُدمّر مصير الانسان كلياً ، ويُؤثر على الأجيال اللاحقة .وهنا لن يعود غريباً عندما نرى الإنسان المتعلق بالحكمة أو الروحانيات وهو يتحوّل من المعبد إلى الملهى .إنّ الروحانيات وسيلة من أجل الوصول إلى الإله وليست هدفاً ولا غاية.

قد يتعلق الإنسان بالروحانية ومحبة هذا العالم ، فإذا ما أساء له أحد أو مجموعة من الناس تتحوّل مشاعره الايجابية دفعة واحدة إلى مشاعر تهديم وقتل ودمار.

قد يتعلّق الإنسان بالمعلومات فتفرح نفسه أو أناه المزيفة وهو يشرح معلومة أو ينقلها ، قد تكون المعلومة روحانية ظاهرياً ، ولكنها مُدمّرة باطنياً نتيجة عدم انتباه مَن ينقلها لأناه المزيفة.

في الحقيقة كلّما تخلصنا من تعلق انكشف التعلق الذي بعده كي نتعامل معه ، يجب التعامل بقوة مع التعلّقات قبل أن تُجبرنا ظروف الحياة ، غصباً عنا على التعامل معها من خلال الأمراض والمصائب والمشاكل.

-مُعلمي هادي ما هي السعادة الحقيقية ؟

-يجب أن تكون السعادة العليا على الأرض ونقطة ارتكاز الإنسان على محبة الإله وليس على القيم الدنيوية ، والاحساس بهذا يُعطي الإنسان السعادة الحقيقية .ما من شيء دنيوي يُمكن أن يكون هدفاً ، بل كل شيء يجب أن يكون وسيلة فقط ، من أجل الوصول إلى الأسمى وهو محبة الإله.

-مُعلمي هادي هل يُمكن أن تلخص لنا مستويات التعلق ؟

-إنّ المستوى الأول من التعلّق هو التعلّق بالغذاء والملذات الجنسية والمنزل والملكية والمال ، بينما المستوى الثاني من التعلقات هو العلاقة مع الإنسان القريب وحُبّه ، وكلّ ما يرتبط بالعمل والمكانة في المجتمع ، أمّا المستوى الثالث من التعلقات فهو التعلّق بالقدرات والصفات الروحية والحكمة والمصير ، والمستوى الرابع هو التعلّق بالروحانيات.

***

لقد كان للوعي في حياتي دوراً هاماً ، وقد تركّز كلّ عملي على ذلك حينما كنتُ مُعلّماً لطلابي ، كنتُ أتعلّم منهم الكثير ، فحصلتُ على مئات المُعلّمين طوال مسيرة حياتي.

لقد كان أصغر طلابي يُعطيني دروساً في الحياة ، وبينما كنتُ أعالج حالات من الناس كانت تتفتح لديّ مدارك جديدة .كنتُ أزرع شتلات من الطلاب وأعتني بها طويلاً كي يشتدّ عودها وتكبر ، وتحول العمل إلى مساعدة للسير على طريق الله ، وهو أقصى ما يُمكن أن يصله الإنسان من الوعي .كانت العناية الإلهية عوني وسندي ، ويد شيخي الجليل تُرشدني إلى كل صواب.

لم أكن في زحمة العطاء ومفاهيم الجمال والحُبّ التي أُعطيها لأدرك تسلل تعلّق جديد وهو التعلّق مني بالطلاب وتعلّقهم بي ، ومع أني كنتُ أردد أنه عندما يُشعّ النور ، تكبر مقاومة الظلام إلا أني لم أتخيّل انتهاء مهمتي في تلك البلاد فجأة.

ـ لا يزال الصراع الأزلي بين الظلام والنور موجوداً حتى الآن ، ولكنّ الأسلحة والأساليب قد اختلفَت وتطوّرَت .كان الواحد منا يلقى شيطانه وسط الصحراء

فيتصارع معه حتى يصرعه ، ومع تطوّر الأزمان يلقاه الآن في هاتفه ، وفي وسط أهله ، وبين أصحابه وخلانه ، فيجهل أنه من أهل الظلام".كُن حذراً ، وانظُر بعين قلبك واسمع بإصغاء"

-صدقت يا شيخي ، لقد أصبح مُعسكر الظلام يستخدم أفضل الوسائل من أجل الإيقاع بأصحاب الأرواح النقية ، فإمّا معهم أو ضدّهم ، ولم يعُد هناك شكّ في ضرورة الوقوف في وجه من أراد الإيقاع بأحبابنا.

وكأنني في هذا الحوار قد رميتُ بنفسي على أبواب جهنم ، لم يرق قراري لأصحاب الظلام ، كيف يروق لهم وأنا جعلتُ من نفسي وأصحابي في خدمة النور.

وهنا ، أُعدّت المكيدة وخرجتُ من تلك البلاد بعد سجن دام أياماً.

في السجن تذكّرت ذلك اليوم الذي لن أنساه في حياتي !إنه يوم سجن والدي بتهمة ملفقة ، قضينا أياماً مرعبة ونحن ننتظر ماذا سيحلّ بوالدنا ، ذلك الرجل الصالح ، الذي لم يرتكب خطأ في حياته ، وكان يبتعد عن كلّ ما يتعلّق بالمشاكل أو السياسة أو الظهور ، ولكنّ المصيبة كانت قد وقعت ، وزجّ في السجن عدة أسابيع ، وكان التحقيق هناك صارماً.

كان أفراد الأسرة في حالة من الجنون وقلّة الحيلة ، فلا أحد يعلم أين هو أو ماذا حلّ به ، وكان الكلّ مُترقباً لحظة عودته أو وداعه.

كان الله دائماً لطيفاً بنا ، ومضَت تلك الحادثة على خير ، وعاد والدي مهيض الجناح من سجنه الذي تجرّع فيه مرارة الظلم وكان في داخله خوف كبير من خوض التجربة مرة أُخرى.

لقد زرع خوفه من تجربته في داخلي برنامج الخوف من السجن، ومن الاقتراب من جميع المحاور المؤدية إليه، بيد أني كنتُ أجذب إلى حياتي تلك التجربة، لقد كان خوفي هو خوف المُدافع عن نفسه ضدّ تلك التجربة، فرفضتها بالمُطلق دون احتساب أنّ مثل هذه الأمور هي واقع قد عاشه الوالد، وأنّ دفاعي عن نفسي ضدّ فكرة لم تحدث بعد، شكّل غيمة مُتراكمة من الأسباب التي حملَت بعد حين السجن المحتم لي.

قضيتُ ثلاث عشرة يوماً، وأنا بائس الحال في سجن بارد وحولي الكثير من الرجال من جنسيات مُختلفة .كنا ننتظر أمر ترحيلنا إلى بلادنا بعد مكيدة دُبرت لي من أجل إخراجي من بلد قدمتُ فيه أفضل ما لديّ بشهادة المئات من الناس، وكنتُ أعمل فيه وأجني رزقي بكدّ طيلة سنوات كنتُ اعتبرها من سنوات الازدهار في حياتي، بعد أن قضيتُ أعواماً سبقتها في بؤس الفقر والحرمان.

الظلم والمكيدة كانا عنوان سجني، كما كان حال سجن والدي، لقد تيقنتُ وأنا بين القضبان أنني كنتُ مغناطيساً قوياً لكلّ ما كنتُ أخشاه .تعلّمتُ أنّ الخوف والقلق يجذب ما نخافه، وأنّ ما نخشى فقده نفقده.

منذ اليوم الأول في سجني، كنت أريد أن أخرج، رافضاً فكرة الحبس، ولكنني في حقيقة الأمر وبعد أيام مضت أيقنت أن هذا السجن لا يختلف عن السجن الذي كنت قابعاً بين جدرانه خارج القضبان.

نظرتُ إلى الوراء، فرأيتُ ساعات طويلة في العمل، إهمال للزوجة والأولاد، كد وعناء وتعب .وتعلّمتُ أنّ الحرية لا ترتبط بمكان، بل هي شيء يُولد في دواخلنا، ويُصنع من تفكيرنا.

كان سجن والدي ومُعاناتنا في غيابه صورة تتجلى إلى ناظري وكأنها حقيقة أعيشها في كلّ مرة أشعر بالخوف والقلق من أحداث كانت تدور حولي في السجن ، أنكمش ، أتراجع ، أقلق ، ثمّ أجلس بعد ذلك مُسلّماً أموري لله ، فتمضي الأمور على أحسن حال.

كانت المكيدة أكبر من أن أحتملها ، وكان من المُفترض أن أقبع شهوراً طويلة وراء القضبان ، بيد أنّ الله الرحيم ودعاء الأحبة ، وفهمي للدرس من وراء السجن ، ضمنت خروجي في غضون أيام قليلة.

بعد أن استقرّت فكرة البقاء في السجن ، وسلّمتُ الأمر لله ، فُكّ أسري ، وعدتُ إلى بلادي بعد سنوات من الفراق.

"كان الله حسبنا ، ووليّنا ونصيرنا ، فخرجنا من محنتنا وتمم الله مقصدنا."

إنّ أرواح الصالحين وأجسادهم النورانية كانت تحيط بكل من دخل عالم النور ، كيف لا والله ولي الصالحين ؟!

عدتُ إلى بلادي مرغما وكأنني لا بُدّ أن أعود طوعاً أو كرهاً فقد كان هناك الكثير من الأحداث في انتظاري.

العودة من جديد

حضر الحُبّ فصار كالدم في عروقي وجسدي.

لقد أفناني وملأني بمحبوبي.

اخترق المحبوب كلّ خلية في جسمي.

لقد بقي من جسمي الاسم فقط ،

وكلّ شيء آخر كان "هو."

مولانا "الرومي"

عانقتني بلادي بمحبة وبادلتها الودّ القديم الذي كان بيننا ، ورحتُ أتجول فيها وأراها بعيون جديدة ، وذات يوم في جامعها الكبير ، كنتُ جالسا أذكر الله هائماً في حبه ، جاءني شيخي ، كان حقيقة وليس في الحلم ، لم أُصدّق عيناي ، ضحكتُ بصوت خافت ، قبّلتُ يده البيضاء وعانقتُه بحُبّ كبير.

كنتُ سعيداً بلقائه وكان سعيداً بعودتي:

-هذا هو مكانك ، لقد عدتَ بجيب عامر ، وحُبّ غامر ، ومُستقبل مُزهر ، لا يرضى الله لأوليائه إلا بطيب العيش.

-ولكنّ الدنيا دار بلاء سيّدي.

-بلى ، هي بلاء للجاحد والمُعرض ، هي بلاء لمن تعلّق بملذاتها ونسي خالقها ، هي بلاء لمن كفر وسخِط وغضِب ، بلاء للعاق والمُتخاذل.

-هل هناك نعيم في الدنيا ولمَن ؟

-نعيمها للمتقين ، أفراح في الأرض والسماء ، أنوار مُتصلة بحُبّ الله .إن رأى زهرة رأى الله فيها ، وإن أعجبه طعام رأى الرزاق فيه ، إن أعياه أمر أوكله للمُغيث ، يعمل في الدنيا ويرى من وراء تصرفاته فعل الله فتكون الدنيا مزرعة الآخرة.

-أوليس الصالحين من فقراء الحال ؟

-لا يرضى الله الفقر لأوليائه ، يُرسل لهم الرزق ، ويُيسر لهم سبل الأرزاق من حيث لا يحتسبون .إذا كنتَ مع الله فما يُعييك وهو الملك ؟ وإن كان الله معك فمَن عليك ؟

-هل العيش في النِعم أم في الكفاف هو الحال الأمثل ؟

-المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ، يُحبّ الله أن يرى النعمة على مَن أنعم عليه ، أنفق وتصدّق وتعطّر وكُن مثالاً يُحتذى.

أمسك بيدي ومشينا في الحارات العتيقة ، نشتمّ أثر الصالحين وأنفاس الأولياء ، في الطريق كانت هناك فتاة صغيرة تُحاول الوصول إلى سبيل الماء في إحدى الحارات ، عجزت الصغيرة إلى الوصول إليه ، فركض الشيخ وحمل الصغيرة وسكب لها الماء من يده البيضاء فشربت الفتاة الماء زلالاً .مشهد لن أنساه ما حييت ، شيخ يناهز الثمانين من العمر يحمل فتاة في السابعة" :ما أرقّ قلبك أيها الشيخ."

-يا لها من فتاة محظوظة.

-أخذَت نصيبها من العلم.

-كأنّها تمتلك دوراً هامّاً في المستقبل ؟

ابتسم الشيخ وربّت على كتفي وقال :نعم إنها كذالك ،

قادني إلى ذلك البيت القديم حيث اصطحبني مرة في إحدى الرحلات.

أيقنتُ أنه سيُفارقني ، فقد قال لي في ذلك الحلم أنّ هذا هو بيت شيخي.

كدتُ أبكي قبل أن يُخرج من جيبه مفتاح البيت ودخلنا معاً إلى الجنة.

لم تسعني الدنيا من السعادة التي غمرتني من لقاء شيخي الحبيب ، كنتُ أخشى أن يتركني ، ولكنني كنتُ على يقين أنني لو بالغتُ في خوفي عليه وتعلّقي فيه ، لفقدتُه منذ زمن طويل.

-بيتك يا سيّدي يُشبه سكينة المساجد.

-مكان يُذكر فيه الله لا يدخله إلا الخير ، بينما يبقى الشرّ عند بابه ينتظر صاحبه ، فإن رآه نير القلب بعد خروجه ، عافه ومضى يجرّ أثواب الهزيمة ، وإن خرج كما دخل عاد إليه مُختالاً مسروراً ، لا تجعل من نفسك مطية للشرّ.

كنتُ أتبسم طوال الوقت مسروراً سعيداً ، وخاصة أنّ الابتسامة لم تُغادر يوماً ثغر شيخي الجليل الجميل ، وراح يُحدّثني عن مدارج الصالحين وبصمات المرشدين وقال:

-مُهمّة أُوكلت إليك فأحسن العمل على انجازها ، ولا تبخل بعلمك فزكاة العلم إخراجه إلى النور.

-ماذا عن عالم الظلام ؟ ألن يكون العلم والنور استفزازاً لهم ؟

-يا ابن الكرام ، إن ظهر النور قبل أوانه يلوح يوماً ثم يختفي ، إنّ البذرة في حاجة إلى وقت كاف حتى تدفع ببرعمها إلى خارج التربة .إن رويتها ماءً صافياً

ونوراً كافياً أينعت واشتدّ عودها ، وكذلك أهل النور في حاجة إلى الخفاء حتى يشتدّ عودهم ويصعب على أعداءهم النيل منهم.

إستمع إلى هذه القصّة:

إستيقظ المُعلّم الذي كان لديه شيء واحد فقط ، بطانية يستخدم نصفها كفراش ، ونصفها كغطاء ، وخلال اليوم كان يستخدمها لستر عورته ، لأنّه لم يكن لديه ملابس غيرها.

رأى المُعلم اللصّ المشهور على ضوء القمر الذي كان يدخل إلى وسط الغرفة من خلال الأبواب والنوافذ التي كانت مفتوحة على مصراعيها .أغلق المُعلم عينيه ، لأنّه لو أبقي عينيه مفتوحتين فسيُلاحظ اللص ، وسيكون الأمر بمثابة عدم احترام له كشخص .لا بُدّ أنّه مُحتاج ما دام خرج بعيداً عن المدينة على بعد بضعة أميال ليسرق.

بكى المُعلّم تحت البطانية وقال" :ماذا سيجد في بيتي؟ لقد خرج على بُعد ثمانية أميال ثمّ سيعود خالي الوفاض ، لو حذرني قبل يومين أو ثلاثة أيام ، لكنتُ طلبتُ الصدقات حول المدينة لأجمع شيئاً ما له .أمّا هكذا ، فلا فائدة من أن يأتي إلى بيت رجل فقير ."لم يكن مُهتمّاً أنّه سارق .وإنّما كان مُهتمّاً أنّه ليس عنده أيّ شيء يستطيع سرقته فيكون راضياً.

كان البيت مُظلماً ، فقلق المُعلّم أنّه قد يتعثر اللصّ فيسقط فيتضرر ، فأضاء شمعة وذهب إلى الداخل وراء اللص .تبدد الظلام فجأة فالتفت اللصّ ورأى المُعلّم وتجمّد من الخوف" :إذا قال هذا الشخص كلمة واحدة فسوف تُصدّقه كلّ البلد."

بيد أنّ المُعلم قال" :لا تخف أنا أتيتُ من أجل مُساعدتكَ فالبيت مُظلم

جداً ، وبالإضافة إلى ذلك أنا أعيش منذ ثلاثين سنة في هذا البيت ولم أجد فيه أيّ شيء ، عاملني كشريك وكلّ ما سنجده يُمكن أن نقسمه بالنصف أو خُذْ كلّ شيء إذا كنت تُريد ، هذا أيضاً أمرٌ مقبول بالنسبة إليّ لأنني لم أجد أيّ شيء ، ما تجده سيكون لك."

لامس كلام المُعلّم قلب اللصّ الذي كان قد سمع كلمة"الرحمة "سابقاً ، ولكنّه يُعاينها الآن لأول مرّة في حياته ، إذ لا إدانة ولا عقاب ، بل على العكس من ذلك ، كان الرجل يُريد مساعدته في سرقة منزله!

قال اللصّ" :سامحني يا مُعلّم ، لم أكن أعرف أنّه منزلك ، وإلا ما تجرأتُ على الدخول."

قال المُعلّم" :ولكن لا يُمكن أن تذهب بيدين فارغتين ، ليس لدي سوى بطانية ، والجوّ في الخارج باردٌ جداً ، فأرجو أن تتفضّل بقبول هذه البطانية."

أعطاه البطانية ، واستغرب اللص أنّه كان عارياً تحتها وأنّها كلّ ما يملك. حاول اللصّ أن يُثنيه عن قراره.

قال المُعلّم" :لا تُزعجني أكثر ، عندما تأتي المرة القادمة أعلِمني مُسبقاً وسأُرتب الأمور ، إذا كنتَ في حاجة إلى شيء مُعين إذكُره ، فلديّ في المدينة الكثير من المُحبين والطلاب والمُعجبين .أنا مُحرَج لأنّ البطانية قديمة وليس من اللائق إهداؤها .ولكن انظُر إلى عجزي وتلطّفْ بقبولها ، وسأبقى شاكراً لك طوال الحياة."

واجه اللصّ مُعضلة :ما العمل؟ لم يُشاهد مثل هذا الرجل في حياته .انحنى احتراماً ، وأخذ البطانية ، لأنّه كان من الصعب جداً أن يرفض ، وهُرِع خارجاً من المنزل ، إذ أصبح من الصعب جداً التواجد في حضور هذا المُعلم .لقد رأى

الأباطرة ورأى الجنرالات ، ولكنّه لم يرَ أبداً كائناً بشرياً مثل هذا.

قال المُعلم للصّ عندما غادر" :تذكّر ، لا تنسَ ، أنت جعلتني سعيداً جداً ، لقد كنتُ فقيراً طوال حياتي ، ولم أكن أعلم أبداً عن فرحة العطاء .لقد حوّلتني من فقير إلى إمبراطور بقبولك بطانيتي القديمة ، لديك قلب كبير وفهم عميق. تعال مِراراً وتكراراً."

عندما ذهب اللصّ جلس المُعلّم يرتجف ، فقد كان الجو بارداً جداً ، ورأى اكتمال القمر مِن نافذته فكتب ما يلي" :لماذا خُلقتُ فقيراً إلى هذا الحد؟ الآن فقط عندما التقيتُ اللصّ شعرتُ بفقري .لو أمكنني أن أُعطيه هذا القمر الجميل لأعطيته إيّاه."

لم أكن راغباً في مُغادرة مجلسه ، ولكنني شعرت بضرورة المغادرة بعد مضي ثلاث ساعات في حديث مُتواصل.

قبّلتُ يده الحبيبة ، وبادلني التحية بحُبّ ، وخرجتُ روحاً ترفرف ، وقلباً مملوءاً بالحب والسعادة.

سجدتُ شاكراً لله على نعمه على قارعة الطريق ، لم أكترث لما دار حولي من ملاحظات ونظرات المارة فأنا لستُ أنا في تلك اللحظات.

بين يدي المعلّم الرباني

"معك أيها القمر متى تكون الأرض مظلمة ؟."

مولانا جلال الدين الرومي

ماذا أكتب عن عالم الجنة في الأرض ؟

قد أكون قادراً على التعبير عن شيء بسيط جداً ممّا تعلّمتُه من مُعلّمي ، ولعلّ أهمّ ما تعلّمتُه هو التوحيد الحقيقي الذي يقول إنّ الله هو الفاعل الحقيقي في الكون ، وأنّ الإله وراء كلّ ما يحدث ، ولا يُصبح الإنسان عارفاً ما لم يرَ يد الله في كلّ فعل وقول وعمل وحادثة كبيرة أو صغيرة ، سيئة أم جيدة.

لقد رأيت في شيخي كلّ صفات المعلم الحقيقي ، وأهمها أنّ المعلم الحقيقي هو من يدلك على الله بأفعاله وأقواله وتصرفاته ، إنه يأخذ كل ما تتعرّض له فيستخلص لك الدرس الذي يجب أن تتعلّمه كي تُصبح أقرب إلى الله ، كي تعود إلى الله.

لقد علّمني أنّ الإنسان الحقيقي هو الذي تتطابق أفعاله مع أقواله ، وأقواله مع ما يُريده الإله الحبيب !لا بُدّ من تطابق العلم مع العمل ، وإلا قادنا العلم الى المتاهات وأصبح جهلاً مُركباً.

إنّ الإنسان الرباني مُتواضع مع كلّ مخلوقات الله ، لا يتعالى على أحد ، ممّا يجعله يحظى باحترام كلّ الكائنات ، وهو في قمة الرحمة والعطف على كلّ المخلوقات ، وكم كان يُكرر القصة التي تقول إنّ الخليل"ابراهيم "عليه السلام

رأى إنساناً ظالماً يضرب يتيماً ، فقال له" :يا ظالم ، أما في قلبك رحمة ، أتضرب اليتيم الذي لا ناصر له إلا الله .اللهم أنزل عليه صاعقة من السماء ،"فنزلَت صاعقة على الرجل ، ثمّ رأى لصاً يسرق مال أرملة ، أمّ اليتامى ، فقال له" :يا رجل أما تجد إلا هذا؟ ،"!اللهم أنزل عليه صاعقة ، وتكرر هذا ، فقال له الله سبحانه" :يا إبراهيم ، هل خلقتهم؟ ،"قال" :لا يا رب ،"قال :لو خلقتهم لرحمتهم ، دعني وعبادي ، إن تابوا إليّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، وأنا أرحم بهم من الأُمّ بأولادها.

إنّ الصوفي ابن وقته وهو مُتواجد دائما في اللحظة ، وهو يستمتع كثيراً باغتنام اللحظات في الحُبّ ، وهو يجد بركة الوقت ، وبركة كلّ الأشياء من خلال الالتزام البسيط بقوانين الكون فينام مع الكون ويستيقظ معه ، ويُعطي لكل فصل حقه ، فلا يجد البرد مع دفء محبته الالهية ، ولا يجد الحرّ مع برد يقينه.

لقد علّمني شيخي أهمية التسامح وروى لي أنّ أصحاب القلوب البيضاء المُتسامحة الذين لا ينامون وفي قلوبهم ضغينة على أحد ، هم من أصحاب الدرجات العليا في الجنان.

كان يُذهلني الشيخ في التعامل مع الكائنات الحية بل وحتى الجمادات ، فتعامله معهم كلّه رقة وحنان ، وكنتُ أرى أنه يتفاهم مع الطيور أحياناً التي تحطّ على شجرة الليمون في باحة بيته الصغيرة ، أذكر مرّة كيف انقطع الحديث عند ظهور نوع من العصافير المُتشاجرة على الشجرة ، ثمّ نزلت بعدها على أرض باحة الدار ، أغمض الشيخ عينيه ، وشعرتُ تماماً أنّ هناك نزاع وقد قاموا بتحكيمه في الأمر ، فقام بمصالحتهم ثمّ غادروا بسلام!

كان الشيخ يمتلك لغة تفاهم خاصة مع النباتات أيضاً ، لقد وجد لغة الحبّ

التي تفهمها كلّ الكائنات ، وكلّ الناس ، ولطالما تذكّرتُ كيف أنه عند الخروج من المسجد مرة قال" :لماذا يرمي الناس بأحذيتهم بقوة على الأرض؟ ألا يشعرون أنّ الأرض أمّ لنا ؟

لقد علّمني الشيخ في مواقف كثيرة النظر إلى الجانب الايجابي في الأشخاص والأحداث ، وكان يُردد دائما كلّ أمر المؤمن خير .هذه النظرة الايجابية دائماً لا تجذب فعلياً إلى حياة الإنسان إلا الخير والبركة والسلام والمحبة .إلى جانب ذلك ، كان هناك التزام شديد بعدم الغيبة أو النميمة أو ذكر مساوئ الناس حتى لو كان فيهم هذه الأشياء ، هذا الجانب الأخلاقي العالي والذي رأيته في أصغر وأكبر مواقف الحياة عند شيخي علّمني عملياً الكثير والكثير ، ولطالما سمعتُ الشيخ يُردد دائماً" :إنّ مقام الإنسان الخلوق يفوق مقام الإنسان العابد الصائم القائم."

إنّ العارفين ينظرون بنور الله وهذه النظرة سارية المفعول تجاه الماضي وتجاه المستقبل ، وهي أيضاً قوية عند التعامل مع الناس ، إنها نظرة ثاقبة قوية ، ولكنهم لا يستخدمون ما يرونه إلا من أجل خير الناس والصالح العام ، إنهم يُحاولون بطريقة غير مُباشرة إصلاح الأمور ، وإيصال الناس من خلال أيّ موقف إلى إعادة التواصل ، والترابط مع الله كي يصلوا إلى بر الأمان.

تعلّمتُ ماذا يعني أن تكون في حضرة مُعلّم حقيقي ، وأن تكون في تناغم وانسجام معه .عندما يكون المُعلّم حاضراً ، وأنت تجلس ببساطة قربه دون أن تفعل أيّ شيء .بيد أنك شيئاً فشيئاً تتشرّب الجو ، البيئة .عندها تتدفّق طاقة المُعلّم وتفيض رويداً رويداً ، ثمّ تُصبح أنت مُنفتحاً عليها .تسترخي شيئاً فشيئاً ، وتتوقّف عن المقاومة والصراع ، وتبدأ بتذوّق نكهة المجهول ، وشمّ عطره ،

وكلّما ذقته أكثر ، توطّدَت الثقة أكثر.

فقط من خلال التواجد في حضرة المُعلّم الربانيّ ، تنفتح إمكانيات هائلة ، وتبدأ طاقاتك في العمل والنشاط ، ويُصبح في إمكانك أن تشعر بصوت همهمة التجديد الذي يظهر في حياتك.

من أهمّ المسائل التي رأيتها عند أهل الله مسألة الابتعاد عن الخوارق واللجوء إلى البساطة .كان يذكر شيخي قصة عن شخص سأل أحد العارفين أن يُعلّمه اسم الله الاعظم ، فقال له" :إنك لا تحتمل ذلك."

عاد الشخص بعد فترة وطلب الأمر ذاته :علّمني اسم الله الأعظم.

قال له العارف :أدلّك على الشيخ الذي علّمني الاسم الأعظم ، ثمّ ذهب به إلى ضفة نهر ، وهناك وجدوا شيخاً كبيراً في السنّ جالساً تحت شجرة يتفكّر ويتأمّل.

ظهر جماعة من اللصوص أمام الشيخ ، فضربوه ، ونزعوا عنه ثيابه ، وألقوه في النهر.

قال العارف للسائل :هل تستطيع أن يكون معك اسم الله الأعظم ولا تستعين به في لحظة غضب ، أو ردة فعل لصالحك الشخصي ؟!

إنّ قصص الصوفية ليست فلسفة ، وإنّما إشارة هادئة وصوت خافت ، وأولئك الذين لديهم استعداد للاستماع بتعاطف ورؤية داخلية ، والذين لديهم استعداد لفتح قلوبهم في ثقة ونكران للذات ، هم فقط الذين يفهمون قصص التصوف.

إنك تجد في معظم مواقف الحياة عند أهل الله قصصاً تدلك على شيء ،

وهي قصص واقعية في معظم الأحيان، وهي تدلّ على الأدب الراقي الذي يتسمون به أيضاً، فلا يقول لك عن صفة سلبية موجودة عندك، ولا يُوجّهك توجيهاً مُباشراً، بل يروي لك قصة، ومن خلالها تشعر تماماً بالمغزى الذي يخصّك، بل قد يكون هناك أشخاص كثيرون جالسين، فيشعر كلّ منهم من خلال القصة بشيء يخصّه يختلف عن الجميع.

لقد كانت التربية بالحُبّ من أعظم ما وجدته عند أهل الله .إنهم يعملون على إيقاد محبة الله في قلبك، وبعدها يقبل التلميذ بكلّ التصليحات والعمل المطلوب على شخصيته، مهما كان قاسياً، ومع ذلك رأيتُ من مُعلّمي من معاني الرأفة والرحمة والصبر على الطالب العجب العجاب.

إنهم أهل الحب الإلهي العجيب الذي يقول عنه مولانا الرومي:

هكذا أودّ أن أموت في العشق الذي أُكنّه لك.

كقطع سُحب، تذوب في ضوء الشمس.

لقد رأيت من شيخي ذلك الثبات العجيب عند الأزمات، وكان يقول إنّ العارف بالله لا يكون عارفاً إلا إذا كان كالريشة في قمة جبل لا تحركها الرياح لا يميناً ولا شمالا، لا إلى الأمام ولا إلى الخلف، لا إلى فوق ولا إلى تحت، لا ظاهراً ولا باطناً.

رأيتُ من شيخي صفات ربانية كثيرة تعجز كلماتي عنها، ومع ذلك كان التخفي والاختباء وعدم الظهور هو أساس حياته، فتراه إنساناً بسيطا للغاية، لطيفاً مع الجميع .ولكم تذكّرت قول مولانا الرومي عن البساطة عندما كنتُ أراه:

لعل الأشياء البسيطة، هي أكثر الأشياء تميزاً، ولكن، ليسَت كلّ عين ترى.

إنّ أهم صفات أهل الله التي رأيتها في شيخي هو سبر أغوار النفس ، والقدرة على التعامل معها ، نعم ، يقولون إنّ النفس هي الحجاب الوحيد بين الإنسان والله ، والطريقة المُعتادة في التعامل معها عند الصوفية هو جهادها وتكسيرها ، إلا أنّ معلمي علّمني أن أصل إلى تفاهمات مع النفس كي تتجاوب ، وقد قال مراراً إنّ المُؤمن الحقيقي مَن يُعطي كل ذي حقّ حقه ، الله والأهل والجسد والنفس والمشاعر والأقارب .يجب أن يعتني الإنسان بكلّ شيء ويتعامل معه من باب المحبة ، واللطف ، والرحمة.

كان شيخي يُكرر قول مُعلّم صوفي قديم" :كان التصوّف فيما مضى حقيقة دون اسم ، والآن هو اسم دون حقيقة ."في اشارة إلى أنّ مُمارسات المتصوفة لا تدلّ هذه الأيام على التصوف الحقيقي ، إلا ما ندر ، وأنّ سلوكياتهم في الغالب لم تشمّ رائحة التصوف حتى !

لقد تعلّمتُ بين يديّ المُعلّم الرباني أنّ التصوف طريقة من أجل التحوّل الحقيقي ، وأنّ التصوّف واقعي للغاية وعملي ، وهو طريق إلى أسرار الوجود .إنه يُشير إلى السر ويقودك إليه .إنه يقودك من مُعجزة إلى أُخرى ، ويغوص بك في بلاد العجائب.

يقول الصوفية" :نحن والوجود كلٌ واحد ."لا حاجة إلى الصراع .قُمْ بالاعتناء بالوجود ، واعمل على رعايته ، أحِبَهُ ، كُنْ صديقه ، يكشف لك بنفسه عن أسراره ، ولا حاجة إلى اغتصابه .إنّ التصوّف هو حُبّ الوجود.

إنّ التصوّف هو يقظة القلب وانبثاق الشعور .يُعرَف الصوفية بأصحاب القلوب ، وهم يتحدّثون بلغة القلب ، ولغة الحُبّ ، فالتصوّف هو طريق الحُبّ. إنّ أولئك المُحبّين فقط يستطيعون أن يفهموا ماهية التصوّف .إنّ التصوّف

يتجنّب التطرف ، ويتّبع الوسط الواضح ، أو كما يُسمونه الوسط الذهبي.

إنّ الكلمة الرئيسة في التصوف هي" القلب ."يُركّز التصوف على القلب ولا يقلق بشأن التفكير لأنّه يُؤمن بالقلبية والوسطية ، وليس طريقة من أجل التفكير ، بل طريقة من أجل الحياة الطيبة .إنّ التصوف يعني الاقتراب من الواقع ورؤيته بعين الحُبّ.

يقول التصوف :لماذا القلق حول الكلمات عندما تكون الحقيقة مُتاحة؟ عندما تستطيع شرب الماء ، فلماذا تُزعج نفسك بالنظريات حول المياه؟ عندما يُمكنك الخروج في الشمس والرقص مع أشعتها ، فلماذا تقلق بشأن النظريات؟ لماذا لا نتفاعل مع الخبرة الحقيقية الأصيلة؟ إنّ الحقيقة هنا !أنت الحقيقة ، الأشجار هي الحقيقة ، الطيور هي الحقيقة ، الشمس والقمر هما الحقيقة ، الحقيقة حولك في كلّ مكان ، وأنت تُغمض عينيك وتُفكّر فيها؟ إنّ أيّ تفكير يُزيحك عن اتجاه الحقيقة الصحيح .ليست هنالك حاجة إلى التفكير .عِشْ الحقيقة !وعندما تفعل ذلك ستعرفها.

لا يبذل التصوّف جُهداً لإقناعك .إنّه يجعل نفسه مُتاحاً فقط أمام الإنسان المُستعد من أجل المشاركة فيه .إنّ التصوف دعوة مفتوحة إلى الجميع ومن أجل الجميع ، ولكن على الإنسان أن يمتلك الشجاعة الكافية ، فالتصوف مُتاح فقط لأولئك الشجعان الذين يثقون .إفسحْ المجال لاكتشاف الجنة داخلك ، إكتشفْ هذه الظاهرة الداخلية ، والبعد الداخلي الخاص بك.

يستند الصوفية ويُركزون على التجربة والتفاعل مرة بعد مرة ، فبيت القصيد في التجربة ، والخبرة هي أساس كلّ شيء!

لا يعرف الصوفي الخيارات .إنّه يعلم ألا خيار .إنّه يقبل كلّ ما يحدث على أنّه

هدية أو هبة من الإله .ولذلك عندما تمرّ بمُتصوّف فسترى براءة الأطفال في عينيه وفي كينونته ، وسترى الحرية والبهجة ، التي تعرفها كلّ الكائنات.

إنّ الصوفي يعيش لحظة بلحظة ، ولا يقلق عمّا تحمله اللحظة التالية ، وليس لديه خطة تخصّ اللحظة التالية ، وليس لديه تعلّق بالمُستقبل ، فهذه اللحظة هي كلّ ما لديه .إنّه يعيش اللحظة بكُليّتها ، لأنّه ليس هناك مكان آخر يذهب إليه .يعيش الصوفي في الحاضر ، وعندها تتركّز الطاقات وتُصبح هذه اللحظة نورانية ، ممّا يُولّد البهجة والبركة.

يستغرق عمل الصوفية سنوات ، ولا بُدّ أن يكون الإنسان في حالة بحث حتّى يتّبع طريقة ، لأنّ الأمر قد يستغرق أحياناً عشر سنوات ، وأحياناً عشرين سنة ، وأحياناً العمر كلّه ، إنّ أولئك الذين يبحثون عن النور السريّع لا يُمكنهم الاتصال بالصوفية ، وبسبب ذلك يدأب الصوفية على اخفاء أنفسهم .ويكونون مُتاحين أمام أولئك الذين يبحثون فقط ويبحثون حقيقة.

لا يهتمّ الصوفية بالجموع ، ولم يكن هناك أيّ مُعلّم مُهتمّ بالجموع .إنّ المُعلّمين يهتمّون فقط بالأفراد وخصوصاً أولئك الذين يبحثون بحثاً عميقاً .كي تستطيع فهم الصوفي لا بُدّ أن تُصبح صوفياً ، كي تستطيع فهم الصوفي لا بُدّ أن تدخل التصوّف ، كي تستطيع فهم الصوفي عليك أن تتخلص من جميع النماذج العقلية القديمة وجميع طرق التفكير.

لقد أضاف شيخي الروح إلى كل الوعي الذي عرفته ، وفتح عيوني على عوالم روحية فيها من الجمال والمحبة الكثير ، وما ولتُ أغرف منها حتى الآن.

-سألتني يا بُنيّ عن شتات الحال وضياعه.

-نعم سيّدي ، كيف يُصبح الحال مع الله خدعة ، وكيف يضيع وينساق المرء إلى متاهة الجهل؟ !وكيف يُمكن التخفّي من قوة الشيطان ، وهل يُمكن أن يكون النور حجاباً بين الشيطان والإنسان ؟

ضحك الشيخ بصوته اللطيف وقال مُبتسماً:

-كلّ هذا مرة واحدة ؟ !أرفق بنفسك.

-أُريد أن أعي سيّدي ، أُريد أن أعرف ، مللتُ الضياع في عالم الأوهام ، أُريد أن أقف على أرض ثابتة وأستقر.

-إليك هذه القصة إذاً:

"ذات يوم ، كان هناك ناسك يعيش مُنعزلاً عن الناس في بيته على تلة قرب قرية صغيرة ، كان بعيداً عن الناس يأكل ممّا يزرع ومن النادر أن يراه أهل القرية إلا في السوق يشتري أشياء من حين إلى آخر.

عُرف هذا الناسك بالورع والتقوى ، ولطالما لجأ إليه أهل القرية إليه من أجل الاستئناس برأيه الحكيم.

كانت السيرة العطرة لذلك الناسك مضرب الأمثال في مُحيط القرية ، وكانت أفضل أوقاته عندما يجلس مُناجياً الله مُبتهلاً مُحبّاً.

كان اختلاطه بالناس قليلاً جداً ، تمر الأشهر ولا يطرق بابه أحد ، فهو في حاله مع الله.

صدف أن وقعَت مكيدة في القرية تسببَت في أذية عدد من الأسر فيها ، ولجأت الأُسر المظلومة إلى الناسك كي تأخذ الرأي والحكم ، وعلى مدى أسبوع كامل كان الناس يجتمعون في بيت الناسك من أجل حلّ القضية ، وأخيراً ولأسباب تتعلّق بمشاهدة موقع الحادثة ، اضطرّ الناسك إلى النزول إلى القرية وإعطاء الحكم الأخير.

في طريقه إلى هناك ، نكزه عجوز بعصاه وهو يقول" :إختبئ ، إختبئ."

أحسّ الناسك بأنّ مكروهاً في طريقه إليه ، ولم يكن قادراً على الاعتذار من أصحاب الحاجة ، فمضى إليهم وحلّ قضيتهم ، وهنا جنّ جنون الشيطان عندما رأى كيف أفشل الناسك مخططه الذي عمل عليه شهوراً طويلة ، وكاد أن يصل بكيده إلى تفرقة أهل القرية وتشتيت قواهم ، وطلاق عدة نسوة هناك ، وسرقة وسلب حقوق ، لقد كان مُخططاً كبيرا أعدّ له مدة طويلة وعمل عليه بإتقان ، بيد أنّ الرجل الصالح جاء ، وخلال عدة أيام أفشل المخطط ، وأعاد الحقوق إلى أصحابها ، وأصلح ذات البين.

حلف الشيطان الكائد في ذلك اليوم أن ينتقم من الرجل الصالح ، فاقترب منه بحذر وهو مُتلبس على هيئة رجل من التجار وقال:

-لن تنجو بما فعلتَ أيها الرجل.

-ومَن أنتَ حتى تتوعدني ؟

-أنا من سيُرسلك إلى نار جهنم.

-وأنا معي ربي ، ولن أخشاك.

عاد الرجل الصالح إلى بيته وفي نفسه شيء من الخوف من كلام الرجل الغريب ، وأيقن أنه الشيطان ، فقد كان يخشى مواجهة الناسك خوفاً من نوره.

دبّر الشيطان مكيدة عظيمة ليُوقع الناسك فيها ، فراح إلى بيت عائلة بسيطة في تلك القرية ، فأشعل النار في مخزن المحصول الذي انتظروه عاماً كاملاً ، وأحرق محراثهم الذي ورثوه عن أبيه ، وحوّل مجرى الماء عن أرضهم ، كان الشيطان أول من سارع في إخماد الحريق ، وساعدهم وراح يُخفف عنهم مصابهم الأليم ، وقدّم للأخوة الثلاثة مبلغاً كبيراً من المال هدية لهم.

رفض الأخ الأكبر المبلغ ، فأقنعه أخوه الأوسط وأخوه الصغير أيضاً.

-أخي ، علينا أن نقف من جديد على أرجلنا ، لقد كانت المصيبة كبيرة ، وليس بمقدورنا أن نبقى دون مال حتى الموسم الجديد.

-حسناً أيها التاجر ، سنعتبره ديناً علينا ، وسنرده لك في العام القادم.

-شكراً لأنك قبلتَ عرضي.

مضى الشيطان مسروراً ، يُعدّ العدة من أجل تتمة المسرحية.

مرّت عدة شهور ، والأخوة الثلاثة وأختهم الشابة يعملون بكدّ وجدّ ، وذلك الشيطان يُراقب كلّ أفعالهم ، ويُراقب من أين تؤكل الكتف ، فكان أن جاء إلى بيتهم في أحد الأيام وقال للأخوة الثلاثة:

-لديّ عرض لكم أيها الشباب ، ستعوضون كلّ ما خسرتموه في الحريق المشؤوم.

-وكيف ذلك أيها التاجر الطيب ؟

-عُرضَت عليّ بضاعة عالية الجودة في مدينة الخزف ، ولستُ في حاجة إليها ، ما رأيكم أن تذهبوا إلى هناك وتُحضروا البضاعة على حسابكم ممّا تبقى معكم من مال الدين ، تبيعون وتشترون وتكسبون أضعاف المبلغ ؟

-فكرة عظيمة.

-ولكن ، لماذا تُساعدنا أيها الرجل؟ ونحن لم نرك في قريتنا إلا منذ مدة قصيرة!!

-إنها يد الله يا صديقي ، يُوجد لك الأشخاص المُناسبين في الأوقات المناسبة.

كان الأخ الكبير يُراقب الجلسة ويستمع بإصغاء ، ثمّ قال:

فليذهب" حامد "و"سعيد ،"وسأبقى هنا مع أختنا وأُتابع أعمال البستان.

قال الشيطان باسماً:

أخشى يا صديقي أنّ أخويك لن يقدرا على اتمام العملية ، فأنت راجح العقل سديد الرأي ، ألستَ في مقام الوالد !رحم الله والدكم الطيب.

شعر الأخ الأكبر أنه الأفضل بين أخوته ، وأنه المسؤول عنهم بالفعل.

غادر الشيطان البيت سعيداً بينما كان يسمع وهو واقف في فناء البيت أصوات الشجار بين الأخوة ، فقد شعر كبيرهم أنه المسؤول ، فراح يُعطي الأوامر والتوجيهات ، بينما كان هو الوادع الحليم بين إخوته .ضحك الشيطان كثيراً في طريق العودة ، حتى أنّ الذئاب كانت قد وجلَت من صوته الماكر الذي اخترق سكون الليل.

بعد عدة أيام ، زارهم من جديد وهم يُعدّون العدة من أجل السفر ، وبينهم

أختهم الشابة قد حملت حقيبتها كي تُسافر مع أخوتها ، فركض الشيطان إلى الأخ الأكبر وقال له هامساً:

هل تريد لأُختك أن ترافقكم في الرحلة؟ هل جُننت وأنت العاقل صاحب الرؤية الثاقبة ؟

-وماذا في ذلك ؟

-الطريق مملوء بقطاع الطرق ، معاذ الله أن تسمح لأختك أن تكون عرضة للفتنة أو الاختطاف.

تورّد وجه الأخ الأكبر ، ماذا سيفعل بأخته ، لن يتركها وحيدة في المنزل ، وليس لديهم أقارب تبقى عندهم فترة غيابهم.

-إذا لن نُسافر ، والله الرزاق.

جنّ جنون الشيطان وهو يرى الأخوة الثلاثة على رأي واحد وحرصهم على أختهم ، فعاود الهمس للرجل ، أنها فرصة كفيلة أن ترفع من شأنهم ، وتنقلهم من حال إلى حال.

بيد أنّ الأخوة كانوا على الرأي نفسه :لن نترك أختنا.

إمتعض الشيطان ، ولكنه لم يستسلم ، فجاء في الليلة نفسها إلى أحلام الأخوة الثلاثة على هيئة رجل صالح بأنوار زائفة وقال لهم:

لكم أن تستودعوا أختكم في بيت الناسك العابد الذي يعيش على التلة خارج القرية ، فإنه رجل مشهود له بالأمانة وحسن الخلق ، واسعَوا في أرض الله ، تنالوا البر والرزق.

في الصباح روى الأخوة الثلاثة حلمهم المشترك ، وظنوا أنه هاتف رحماني ،

وأنّ الذهاب في التجارة سيكون عوناً لهم ، بينما الناسك خير أمين على أختهم الشابة.

ذهب الأخوة إلى بيت الرجل الصالح وأخبروه القصة كاملة وبما رأوا ، وقد كان الرجل من الحكمة والبصيرة كي يُدرك أنّ الشيطان يُدبّر الأمر برمته ، لقد شعر أنّ ذلك التاجر الزائف يُريد أن يُشعل فتنة كبيرة.

حاول الرجل أن يُخبرهم أنّ التاجر ليس إلا ماكر خبيث ، وأنّ هذه القصة من أولها لا تُبشّر بخير ، ولكنّ الأخوة كانوا على يقين أنّ ما رأوه حقيقي ، وأنّ التجارة ستجعل مُستقبلهم مُزهراً ، وسوف يستطيعون بعد ذلك أن يتزوّجوا ويزوّجوا أختهم التي لم يطرق باب بيتها خاطب لأنها يتيمة وفقيرة.

حزن الرجل الصالح على الإخوة وقال لهم إنه يُمكن أن تبقى الفتاة في غرفة بعيدة عن غرفته ، ولن يقرب مكانها إلا ليُقدّم لها الطعام ، فهو غير مسؤول إلا عن طعامها وشرابها.

فرح الأخوة واستبشروا خيراً ، وأحضروا أختهم الشابة إلى تلك الغرفة التي حكى عنها الرجل الصالح ، وسافروا في تجارتهم.

فرح الشيطان فرحاً كبيراً فقد رحل الإخوة وتركوا الفتاة وحيدة في غرفة مُنعزلة إلى جانب الرجل الصالح ، وقد آن أوان مكيدته الكبرى.

مرت عدة أيام والفتاة في غرفتها ولديها بعض المؤونة والماء ، وبينما كان الرجل الصالح في التلة يجمع الحطب وبعض ما يحتاجه ، أطلق الشيطان صرخة تشبه صوت النساء وهو يستغيث:

أنجدني أيها الرجل الصالح .يا ويلي!

ركض الرجل إلى غرفة الفتاة وطرق بابها ، ففتحت الباب بهدوء وسألت:

خيراً أيها الرجل الصالح ؟

سمعت صوت استغاثة فجئتُ أرى ماذا ألمّ بكِ.

أنا هنا في مكاني ولم أصرخ ، ولكنّي سمعتُ الصوت أيضاً ، كان صوتاً خبيثاً وأحسبه صوت الشيطان.

أدرك الرجل أنّ الفتاة صاحبه فتح وأنوار .فعاد إلى غرفته وهو يُفكّر في نضج الفتاة ، وكيف أنه من المُمكن أن يتبادلا الحديث معاً حول ما تعرفه عن الله.

نام الرجل في ليلته ، وقد طلب من الله كعادته أن يحميه وكلّ العباد من كيد الشيطان ، بيد أنّ الرؤية التي شاهدها أيقظته مذعوراً محموماً ، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، بينما كان الشيطان يُراقب الرجل من نافذة الغرفة ، وقد جهل ماذا رأى الرجل الصالح في منام .قلق الشيطان كثيراً حيث وما يستطيع دخول عالم النور الذي كان فيه الرجل الصالح ، فكيف له أن يعرف ماذا رأى في الحلم ، فأخذ يُرتّب مكيدة ليسمع مارآه الرجل في المنام.

لقد عاش الرجل الصالح كلّ حياته وهو يتصدّى لمكائد الشيطان ، ويعرف حيله وألاعيبه ، ولن يخفى عليه ما فعله مع الإخوة الأربعة ، وسبب إحضار الفتاة إلى بيته ، ولكنه حاول إخفاء الأفكار عن دماغه ، حتى لا يلتقط الشيطان أنّ الرجل يعلم ما دار في الخفاء.

عجز الشيطان بشتى السبل عن معرفة ما يجول في خلد الرجل ، ومع أنه شديد الحنكة والمكر ، إلا أنه وقف عاجزاً.

شعرت الفتاة صاحبة الروح الطاهرة بروح الرجل الصالح تتحدّث إليها داخل

غرفتها ، ومن المعروف أنّ الشيطان ليس له سلطان على عالم النور ، ولا يُمكن له أن يخترقه أبداً ، قال الرجل الصالح للفتاة:

يا أختاه ، إنّ الشيطان يُعدّ المكيدة ، وقد أحكم حلقاتها منذ أن أحرق محصولكم ، وأبعد أخوتك ، ودفع بك إلى المكوث في بيت ، فهل أنت مُدركة لما يحدث ؟

-نعم سيّدي ، منذ أن شممتُ رائحته بالقرب من دارنا عندما أشعل فتيل النار.

-الحمد لله ، علينا إذا أن نُعدّ العدة من أجل الذود عن أنفسنا.

-عرفت سيّدي أنه يُريد منك أن تغدر بي وتخون الأمانة وتُغضب الله.

-نعم أختاه ، كان الصالحون في الرؤية يجولون حولي ، ويضعون لي حصناً منه وأخبروني بكلّ هذا.

-حسناً سيّدي وما هي خطتك ؟

-عليك أن تطرقي اليوم على باب بيتي ، كي يظنّ أننا انصعنا لأمره ، وأرسلي في طلب أخوتك مع صديقي العارف بالله أبا مطيع تاجر الخضار في القرية ، وقولي له إنّ أخاك أُحيط به ، فاجمَع أولياء الله.

بالفعل ، ومع حلول الظهيرة ، دقَّت الفتاة باب بيت الرجل الصالح ، وتحدّثت معه وضحكَت ثمّ غادرت ، بينما كان الشيطان سعيداً يفرك كفيه شوقاً وترقباً لحدوث المصيبة.

كان تركيز الشيطان منصباً على الرجل الصالح ، ونسي أن يمشي وراء الفتاة ويعرف إلى أين كانت وجهتها ، فلم يكن يعلم أنّ لها حالاً مع الله وأنها من

العارفات المخفيات .كان يعمل جاهداً من أجل الإيقاع بالرجل الصالح الذي خرّب عليه أعظم مكيدة كانت في تاريخ تلك القرية.

كان يعلم أبو مُطيع ماذا يجري بسبب اتصاله الروحي ، وترقّب مجيء الفتاة وأعدّ العدة من أجل ذلك .فأرسل برسالة إلى إخوة الفتاة في المدينة الكبيرة وقال لهم:

إنّ" محسن "الرجل الصالح وحيدٌ في هذه الحياة ، وعندما رأيتُ من أختكم العفاف والطهر وحسن الخلق ، رغبتُ في تزويجها له ، وسيمنحها"مُحسن "بيتاً كبيراً وسط القرية كان قد هجره منذ سنوات مهراً لها ، إن كانت رغبتكم تتوافق مع ما ارتأيتُ ، أرسلوا لي الردّ مع حامل هذه الرسالة ، حيث سأعقد قرانهما ، وننتظر تزويجهما حينما تعودوا على أحسن حال."

راحت الرسالة في سرعة خاطفة ، ووصلت إلى حيث يقيم الأخوة في المدينة الكبيرة ، وأقرّ الجميع أنّ التاجر أبا مُطيع من أعيان القرية وما كان له إلا أن يُدبّر أحسن التدبير ، فهو كالمختار أو الحاكم في القرية ، وهو أكثر سكانها ثراءً ، فعاد الجواب بالموافقة مع الرسول.

كان الرجل الصالح جالساً على غير عادته خارج البيت ، وكان الشيطان غير قادر على الولوج إلى أفكاره ودماغه ليعلم بماذا يُفكّر ، فأهل الأنوار تخشاهم الشياطين ولا تقترب منهم إلا من مكان بعيد ، حتى أطلق الرجل الصالح زفرة طويلة وقال:

آه من الحُبّ ، لقد تأخَرت تلك المحبوبة.

فرح الشيطان وظنّ أنّ كيده قد اكتمل ، وأنّ الرجل الصالح وقع في حبال الحُبّ ، وبعد أيام قليلة سوف يتملأ قلبه بحُبها ويحلّ محل حُبّه لله ، وهذا

أقصى ما يتمناه الشيطان لرجل كهذا.

في جنح الليل ، وبينما انطلق الشيطان كي يرى حال أوليائه ، ويُرتب لهم أمور الكفر والغدر والأذية ، جاء أبو مُطيع إلى بيت الرجل الصالح ومعه أربع رجال من أعيان القرية وصالحيها ، وعقد قران الرجل الصالح والفتاة.

عاد الشيطان في الصباح ليتفقد حال صاحبه الواقع في الحُبّ ، فكانت الفتاة في غرفتها ، والرجل الصالح يُرتب خارج بيته ، هائماً في عالم آخر.

أحسّ "مُحسن "أنّ الشيطان قريب منه ، وكان يعلم عجزه عن الاقتراب إلى حدود أنواره ، فناداه من بعيد:

يا أبا مرة ، ألا تقترب قليلا؟ أُريد ان أستشيرك في أمر.

ذُهل الشيطان ، فكيف للرجل الصالح أن يطلب مشورته وهو يعلم مَن يكون" :لا بُدّ أنّ الرجل أصبح جاهزاً للغواية."

-حسناً يا صديقي ، قادم إليك.

حاول الشيطان الدنو من حدود أنوار الرجل الصالح ولكنه كاد يحترق ، فابتعد قليلاً.

-لا أستطيع الاقتراب أكثر يا صاحبي ، هلّا ذكَرتني بصفات جميلة حتى تتضاءل أنوارك وأتمكّن من الاقتراب؟

-ماذا عساي أن أقول يا أبا مرة؟

-أو رُبما تغضب يا صديقي ، فالغضب كفيل بإطفاء أنوارك ، إشتم وسبّ ، تمنَّ الشرّ لأصحابك ، تذكّر النساء وحلاوتهن ، ألا ترغب في النساء !تذكّر مالك الوفير الذي تركته في عهدة صديقك أبي مُطيع كي تعتزل هنا سنوات طويلة ، أما

تشتهي أن تملأ بطنك بأطايب الطعام حتى التخمة؟ يا صديقي، إنّ مفاتيح ولوجي كثيرة فقط، وما عليك إلا أن تُريد وأنا في خدمتك.

تأثر الرجل الصالح، وعلم كيف كان هذا الشيطان الماكر يُوقع بالناس، يا له من ماكر!

. ما رأيك أن تُحضر لي تلك الفتاة، فأنا أراها على حُسن وجمال.

ضحك الشيطان بفرح غامر، وأنطلق إلى غرفة الفتاة وراح يُغني لها قصائد الحُبّ، وقال أنه رسول الرجل الصالح، وأخبرها أنه يُريد حُبّها العذري، وما عليها إلا أن تذهب إلى لقائه، وأنه سيكون إلى جوارها، ولن يسمح له بأذيتها.

-حسناً أيها الرجل، ولكن عندي شرط واحد.

-لن أتردد في تلبيه جميع شروطك.

-أريد منك أن تقف بيني وبين الرجل الصالح.

-ولكنه صاحب أنوار تُحرقني.

-لن تُحرقك مادام لقائنا فيه معصية لله، ما عليك إلا أن تقف حتى أطلب منك الرحيل، فهل تُوافق على ذلك؟

-حسناً، رُبّما أصابتني بعض الحروق، ولكن سرعان ما ستُشفى وأنا أراكما سعيدين بالحُبّ الجميل، وفور عناقكما لن يبقى في جسدي إلا الصحة والقوة.

ذهبت الفتاة والشيطان إلى حيث الرجل الصالح، ووقف الشيطان بينهما كما وعد الفتاة، ولكنّ الأنوار تعاظمت، ورفعت الفتاة ذراعيها إلى السماء وقالَت:

يا مَن أخفي سرّي عن البشر، يا مَن أنزل من السماء على العدو الحجر، يا

مَن له أقدار كلّ الخلق والبشر ، يا مَن عصمني وسترني ، يا مَن يسمع همسي وصوتي ودعائي ، أنزل على هذا الماكر أشدّ العذاب واصرفه إلى غير رجعة.

تكاثفت أنوارهائلة لفَّت المكان حتى رآها سكان القرية ، وراح الشيطان يصرخ مُستغيثاً:

-أخرجوني من هنا ، كيف للحرام أن يُخرج النور ؟ كيف للغيّ أن يجعل نورك على هذا الشكل ، مَن أنتِ ؟ كيف لم أراك سابقاً.

-أنا زوجته أيها الماكر ، والحلال نور.

-كيف خدعتماني ؟

إحترق الشيطان البائس وهو يلفظ آخر كلماته:

سأردُّ لكما الصاع صاعين ، لي أخوة أشدُّ قوة وبأساً مني.

غادر الماكر ، واستوت الحياة ، ولكنه لا يزال يدفع ببنيه وأتباعه إلى كل مكان يظهر فيه الصالحين.

تنهد الشيخ الحبيب واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقال:

-هل عرفتَ أيها الحبيب هادي ما أرمي إليه ؟

كادَت أنفاسي تنقطع ، وأنا أُتابع الحكاية وكأنني أراها بأمّ عينيّ.

-نعم سيّدي ، لقد فهمت.

ما فهمته من تلك الحكاية كاد يقطع أنفاسي ، تعلّمتُ أنّ الظهور يكسر الظهور ، وعرفتُ أنّ ابليس وأعوانه مُترصدين للبشر على أقلّ هفوة ، بل يُزينون لهم المُحرمات ، إلى أن يقعوا في أسوأ الأفعال.

كنتُ أعلم أنّ الإنسان واقع تحت رحمة الله ، وأنه سبحانه مَن يرأف بالعباد إن أرادوا ذلك لأنفسهم ، إن أرادوا التوبة فهو التواب الرحيم ، وإن أرادوا الإحسان فقد فتح باب الإحسان على مصراعيه ، وإن أرادوا العصمة والتحصّن ، فهو مَن يعصمهم ، تعلّمتُ أنّنا يجب أن نُريد العصمة ونطلبها ، بيد أنّ العمل خارج مفهومها يعني الوقوع ضحية لنقيضها.

إنّ اعتداد الإنسان بنفسه وظنّه أنه هو الذي يعمل ، واغفاله أنّ الله هو الفاعل الحقيقي في الكون ، من استدراج النفس التي تقوده إلى الهلاك الأكيد.

كيف لعابد قضى حياته في حضور القلب والذكر والصلاة أن يقع ضحية مكر الشيطان ؟ لولا فضل الله ورعايته لهلك أيّ انسان لا محالة ، وضاعت سنوات عمره كأنه لم يعمرها بالتقوى والصلاح.

يُريد الله لعباده حياة كريمة يا ابن الكرام ، ولن يرضى لأوليائه إلا الخير والحُبّ والرحمات .يُرسل الله عباده إلى أقاصي الدنيا كي يعملوا ، ويُتيح لهم فرص الرزق وعليهم اغتنامها ، سيبقى أهل الله في بحبوحة ويسر حال حتى آخر يوم في حياتهم ، تذكّر وذكِّر.

ماذا عن الابتلاء يا سيّدي ؟ أليس الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه ؟

يُحبّه فيُقرّبه إليه طوعاً ، وإن لم يأتِ طائعاً ، أحضره مُكرهاً ، وعندما يذكره ويؤوب إليه ، يشفيه ، ثمّ عندما يُصبح الله في قلبه ، يُعطيه .وما أجمل عطاءات الله ، إذ ترى أبواب الجنة وأنت سائر على أرض من تراب ، وتتراقص نسمات الحُبّ في قلبكَ وكأنها بلسم شافي ، ترى الأرزاق من شتى الأنواع تُمسكها بيديك ، وتنعم بها لأنها بين يديك وليست في قلبك ، وليس في القلب إلا مالك القلب الذي ملك الفؤاد ونادى ألا أيها المُحبّ تودد إلينا ، نُعطيك ما ترجوه في

الدنيا وأكثر.

ما أروع حياة العارفين ، ربّ اجعلني ومن ذريتي من أحبابك ، واجعلنا عباد إحسان لا عبيد امتحان.

السحر الأسود

في أثناء التجليات الرحمانية التي كنتُ أنعم بها بين يدي شيخي ومُعلّمي وحبيبي ، كنتُ أُحارب بشدة ، فطريق النور لا يخلو من الصعاب ، ومُعسكر الشرّ يُشاهد كلّ تحركات الباحثين عن الله ، وينشدون فرصة للإيقاع بهم ، ويضعون كلّ العراقيل حتى تُصبح حياتهم مليئة بالبؤس والشقاء ، فيظنّ الواحد أنّ الله يبتليه ، ولكنّ الله يختبر مقدراتنا وعلومنا ، ويضع محبتنا في غربال الصلاح ، وكأنه يضع لنا تجارب وتدريبات حتى نُتقن فنّ الحياة الحقيقية ، الحياة دون خوف ، ولا قلق ، ولا تفكير بالماضي ، إنّ العمل والكدّ ، التعلم والمثابرة ، كلها دروس وتجارب يومية فيها الجيد ومنها السيئ ، ولكنها وعلى اختلاف نوعها تندرج تحت مُسمى"تدريبات ربانية من أجل كسب معارف الحياة السوية ،"هذا ما توصّلتُ إليه وأنا في غمره خلافاتي الزوجية ، ومُواجهة السحر الذي لم يكن لي فيه باع أبداً.

على مرّ الأعوام أوشكت يد الشيطان أن تنال مني عدة مرات ، ولكنّ الله سلّم ، بيد أنّ هذه المرة ، كان الاختبار أكثر قوة من ذي قبل ، ففراق ولدي مجدداً بات يلوح في الأفق ، والسّحر بات في بيتي ، وأنا أُحاول أن أُبعده عني ، بيد أنّ الأوان كان قد فات ، وعلمتُ لاحقاً أنني كنتُ تحت سيطرة السّحر منذ أعوام مضَت على يد زوجتي.

كانت تغار عليّ على نحو جنوني ، فلجأت إلى أبشع الطرق من أجل"سلب إرادتي ،"ولكنّ وجودي قريباً من شيخي كشف تلك المشكلة ، فراح يُنبهني مراراً

وتكراراً وأنا أجهل ما يُخفيه عني ، إلى أن جاء يوم قدّمت فيه زوجتي لي فنجاناً من القهوة ، فأخذته منها ، وقبل أن أشربه سمعتُ صوت الشيخ يُحذرني"لا تشرب القهوة ،"ولكنني لم أستمع إلى التحذير وشربتُ القهوة ، وانتابتني بعدها آلام قاتلة في ذلك اليوم ، استمرّت شهوراً طويلة بعدها.

هل يُعقل أن تسحر امرأة زوجها خوفاً من فقده؟ فليرحل إن لم يكن راغباً في البقاء معها بكامل إرادته ، دون أن تطلب عون الشر وتخسر الدنيا والآخرة.

ذهبتُ بعد يومين إلى بيت الشيخ ، وما إن دخلتُ البيت حتى رأي وجهي الشاحب فقال لي غاضباً على غير العادة:

ألم أطلب منك ألا تشرب فنجان القهوة!

تلعثمت وخجلت من نفسي ولم أقوَ على الكلام ، صمت ورحتُ أنظر إليه طالباً العون ، فقد كنتُ أُعاني من آلام تُقطّع أحشائي ، فأحضر لي كوباً من الشاي ووضع فوقه بعض قطرات من الليمون ، ووضعها على فمي وقال: "إشرب ، بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم."

بقيَت الأحلام المُرعبة والكوابيس الليلية تُرافقني فترة من الزمن ، والشيخ لا يزال يقوم على علاجي ، ولكنّ الأذية كانت قد وقعَت ، وما سيفعله هو أن يُعيد الأمور إلى سابق عهدها ، وواجبي أن أحذر من أيّ أفعال جديدة.

رفضتُ بشدة كما كان حال الشيخ أن أبقى مع امرأة تتعامل مع السحر وقوى الظلام ، فقررتُ أن أتركها ، وبالتالي سأترك ولدي مجدداً ، كان الأمر في غاية الألم ، وقد أيقنت أنني لم أتعلّم من درس تركي لولدي الأول في بلاد الغرب ، وهذا الأمر أخّر انفصالي عنها مدة من الزمن ، حيث كنتُ أريد عدم تكرار تجربة

نرك الأسرة ، وترك ولدي الذي كنتُ أراه بائساً كما هو حال ولدي الذي بلغ العشرين من عمره.

ولكن كان لا بُدّ من هذا الانفصال ، فقد تعاظم تعلّق زوجتي بي ، وخوفي من تكرار الفشل ، صرتُ أُحاول بشتى السبل أن أبقى أسرتي تحت ناظري ، ولكن عبثاً كنتُ أحاول ، لا بُدّ من العودة إلى نقطة الصفر مُجدداً.

أخذت طليقتي الصغير وغادرَت حياتي دونما عودة ، فالطيبون للطيبات والطيبات للطيبين ، هذه هي القاعدة عند الله ، ولاشيء غير ذلك.

كان الشيخ شاهداً على كل ما حدث من مشاكل الطلاق ، وتضاءلت تلك الأحاديث الجميلة عن الله والحُبّ ، فأنا في مرحلة لا أقوى فيها على الكفّ عن التفكير في مصير أُسرتي ، وما سيؤول إليه الحال ، واستحوذ عليّ الهمّ الشديد ، والبكاء المرير.

عقب صلاة الجمعة كنتُ في حضرة الشيخ ، فبكيتُ وشكوتُ له حالي البائس فقال لي:

لقد قُدّر لك ولأخوتك في عائلتكم أن يعيش أولادهم بعيداً عنهم.

صُعقتُ ممّا قاله الشيخ.

-ولكن لماذا يا سيّدي ، أليس من الطبيعي أن يعيش الأطفال في كنف والديهم ؟

-بلى ، ولكن هناك شيء تُسمونه أنتم برنامجاً وراثياً ، وهو قويّ قديم ساري المفعول ، اجتمع من عدة أشخاص من الأجداد من أطراف متعددة ، ولن يُعطّله إلا اجتماع الجميع على الاستغفار والعودة إلى الله في الأسرة ، إنها الوراثة

العائلية يا بُنيّ ، ولا يرفعها سوى الاستغفار.

ومن جديد بقيت وحيداً أنظر إلى ذكرياتي مع أولادي بعين المُتحسّر ، أرغب في سماع ضحكاتهم من جديد تملأ بيتي ، ولكن يشاء الله أن يضعنا في الظروف الأفضل كي نكون روحانيين وقريبين منه في فترة ، ثمّ إذا ما فهمنا دروسنا ، وتعلمنا من التجربة واستخدمنا الظروف مهما كانت قاسية ، كي نُحافظ على محبة الاله في قلوبنا ، عندها تتغير الأحوال ، ويأتينا ما يُناسب المستوى الجديد من الوعي والفهم ، وهكذا إلى مالا نهاية

لقد بقيتُ من جديد دون بيت ولا أسرة ولا أطفال!

***

ثمّ شاء الله أن ألتقي بفتاة أحلامي ، توأم روحي ، ذات حسب ونسب ، وقد كان لله إرادة بيني وبينها ، وتمّ الزواج بمُباركة شيخي حيث عقد قراننا في أجواء مملوءة بالخوف والحذر من مكر طليقتي ، التي حشدت قوى الظلام من أجل إفشال زواجي ، ثمّ بدأت تُجدد السحر على نحو مُستمرّ ، وما لبثت الحروب الضارية أن قامت بيني وبين زوجتي الجديدة.

كان لها من طول البال ما أدهشني ، كانت تحنو عليّ كما الأُمّ الحنون ، وكان اسمها على اسم أول حُبّ في حياتي ، مُعلّمتي التي أحببتُها في أيام المراهقة ، يا لها من جورية بيضاء في عالم ندر فيه هذا اللون.

كانت تتجدد الحروب بين فترة وأُخرى وأحياناً على أتفه الأشياء ، وكأنّ يد السحر تنتظر أي تقصير في التحصين أو قراءة الأوراد كي تطالنا!

-إنسَ يا حبيبي أمر السحر والشر ولنتطلّع إلى الأمام.

-الشرّ يُرافقنا ، وليس علينا تجاهله ، ألا ترين آثاره على حياتنا ؟

-كلّما ذكرناه عاد من جديد ، إنّ الشر يتغذى على خوفنا ، كيف نخافه ونحن في عين الله!

-أخشى أن أفقدكِ يوماً ما.

-لا تخشَ ، فلن تفقدني.

وصلنا مرات عديدة كنت على شفا هاوية الانفصال ، ولكنّ الله قدّر أن نبقى معاً ، فكلانا يُحبّ الآخر ، ولا يزال هناك شيء روحي أعلى من إدراكنا يجمع بيننا ، بل إننا كالمرآة لبعضنا البعض.

***

على مقربة من الموت كانت صديقة لنا تُعاني في آخر أيامها ، لقد أصابها مرض عضال نتيجة سحر عانت منه سنوات طويلة ، كيف لا وقد كادت لها امرأة وأوكلت بها عفاريت ومردة حتى ينالوا منها.

كان الشيخ يُشفق لحال تلك الفتاة ، وعلمتُ لاحقاً أنها من المُقرّبين ، وقد وصلَت مرات عديدة إلى حافة الموت ، وكان الشيخ يُساعدها على التقاط أنفاسها والعودة من جديد .بيد أنّ الأجل قد أتى ، وتُوفيَت الفتاة وسط دهشتي الكبيرة ، عندما رأيتُ تعزية لها على صفحة التواصل الاجتماعي ، حسبتُ أول الأمر أنها تُعبّر عن رغبتها في الموت من شدة الألم والعذاب كما كانت تفعل مُؤخّراً ، ولكنّ الحقيقة أنّ الموت قد أتى بالفعل.

لن أنسى حبها للعارف الأكبر الشيخ محي الدين ، وأحاديثها الطويلة عن حُبّ الله ، التي كانت تجلب السعادة لي ولزوجتي ، كنا نجلس معاً ساعات

طويلة نتبادل أجمل الأحاديث ، ونروى أحلى القصص عن العارفين بالله وعن المحبة والسلوك ، وفي طرفة عين أصبحت"كانت ."لقد كانت شخصاً مُؤثراً ، وكانت وفاتها صدمة كبيرة لي.

كانت مُتعلّقة بأشياء غير دنيوية ، كان لديها تعلّق بالروحيات ، نعم ، وبأنها عبدٌ لا يرغب في الخطأ ، وكانت ترفض وجود الشرّ ، ولطالما تحدّثنا أنّ الشر كائن موجود مثلما الخير ، وأنّ نكرانه كما هو التفكير به يُعجل في سيره نحونا ، وظهوره في حياتنا.

كانت هذه التقية الطيبة مثالاً قوياً على أنّ رفض وجود ما هو حقاً موجود ، يجذبه إلى حياتنا بسرعة كبيرة.

حاولَت الفتاة انتشال نفسها من وحل السّحر ، ولكن بعد مدة تبيّن لي أنها بطريقة أو بأُخرى ، راغبة في البقاء في حالة الضحية التي وقعَت تحت تأثير السحر ، وأنّ ما حدث معها لا يُمكن لأحد أن يحتمله .في حقيقية الأمر ، فإنَ كلّ مريض ومُتألم مهما تضاءل حجم مرضه وألمه ، يرى أنّ ما يُعانيه هو الأكثر فتكاً ، وأنه الأكثر صبراً وتحملاً.

لقد كان تفكيرها المُستمرّ بالسحر وبما أصابها ، يجذب لها المزيد من الألم. فالتفكير السلبي وكلّ أمر سلبي هو عبارة عن مغناطيس لأمثاله ، فنحن ما نُفكّر فيه ، ففكرة تجذب الخير ، وأُخرى تجذب الشر ، والخيار لنا في كل مرة .إنّ التفكير في شيء يجذب مثيله والخوف من شيء يجعله أيضاً يتجلّى في حياتنا.

حاولتُ مراراً أن أُخرجها من دائرة السلبية وفكرة الابتلاء الرباني:

-لماذا يُعذبنا الله !هل يُريد لنا الشقاء؟ ألسنا خليفته على الأرض؟ كيف سنقوم بدور الخلافة إن لم نتمتّع بكامل العافية والصحة ؟

-إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه.

-الحُبّ نور والبلاء للظالمين والأشرار.

-يُريد الله منا أن نصبر ونتحمل.

-يُريد الله لنا كل خير ، ولا يُريد لنا أن نشقى ، يُريد لنا الحياة الطيبة وفيها العلم والصحة والعافية والمال والوفير والغنى المادي ، ولا تظهر الابتلاءات إلا حينما نتعلّق بما هو وسيلة على طريق محبة الإله.

كان النقاش دائماً ، ولم تكن تُغيّر فكرتها إلا ما ندر من المرات ، وكلّما استجابت لفكرة أنّ الله تعالى يُحبّنا ولا يُريد لعباده سوى الخير والسعادة ، وأنّ الفكرة يُمكن أن تُساهم في الشفاء ، كان وجهها يبدأ في إطلاق صيحات التشافي ، ويتعاون جسدها مع الفكرة بصورة رائعة ، بل إنّ نتائج التحاليل المخبرية كانت تُظهر فارقاً كبيراً نحو الأفضل.

بيد أنّها سرعان ما كانت تعود كي تعيش ذلك الماضي التعِس ، وتستجلب دون وعي منها الذكريات المؤلمة ، فيعود جسدها إلى الذبول ووجهها إلى الاصفرار والنحول ، رحمها الله.

كيف لإله جميل ودود أن يختار البؤس والخوف والجهل والفقر لخلقه ؟

تلك بذرة التربية الخاطئة التي تلقّاها الغالبية العظمى ، وقد نسي المربون أنّ الله تعالى يُحبّنا ، وركزوا بقوة على الترهيب" :لا تفعل حتى لا يُدخلك الله إلى نار جهنم ،"فأصبح الإله عند مُعظم الأطفال الصغار مصدر رعب وخوف ، بينما لو علم الأطفال أنّ الإله مصدر الحُبّ الحقيقي والفرح والبهجة لعاش سعادة الدنيا ، وقادته إلى سعادة الآخرة.

المال لا يشتري السعادة

ساعات من الحُبّ الطويل كنتُ أقضيها بين يديّ شيخي الحبيب ، وفي كلّ مرة كنتُ أنظر إلى وجهه وهو مُتعب فأخشى أن أفقده ، وأُفكّر طويلاً في يوم لن يعود موجوداً في عالمي ، ثمّ أعود أدراجي فأُسلّم الأمر لله وأُراقب قلبي خوفاً أن أجد فيه غير الله فأشقى.

لم تكن حكايات شيخي حكايات عادية ، ففي كلّ مرة كان يضع لي الدواء من مشاكلي على هيئة قصة عليّ أن استخلص منها العبرة والدواء النافع.

كنتُ يومها قد خرجتُ من البيت مُتذمّراً من مشكلة دارت بيني وبين زوجتي ، كانت تطلب مني المزيد من الاهتمام ، وأنا الغارق في عملي وطلابي وعلمي .فما كان مني إلا أن نهرتها وقسوتُ عليها ، وتوجهتُ بكل ما أحمله من سوء إلى شيخي الذي استقبلني بكوب من الشاي كعادته ، وحكى لي هذه الحكاية:

يُحكى أنّ رجلاً فقير الحال كان يعمل في فرن الخبز في الحيّ الصغير ، وكانت له زوجة كقطعة من القمر ، كلامها حلو رقيق ، وصوتها عذب جميل ، كان يأوي إلى بيته فيحكي مع زوجته أحلى الحكايات ، ويضحكون على بعض القصص المضحكة ، ويتناولون ما تيسر لهما من طعام ، ويختمان السهرة بالغناء والرقص ، فيحمل الرجل وعاءً فارغاً ويضرب عليه ألحاناً مُضحكة ، وتقف زوجته اللطيفة لترقص على أنغامها ، ويضحكان ويبتهجان ثم يأويان إلى السريّر

والبسمة تعلو ثغريهما ، وأرواحهما في أمان وسعادة.

-إسمح لي سيّدي ، كيف للروح أن تكون في سعادة ، والغناء والرقص دائر في البيت ؟

-إنّ الله يُحبّ السعادة لعباده ، لمَ لا وهي حلاله وسكنه ، فليس هناك معصية تُرتكب.

-وهل تسعد الأرواح ؟

-إنّ الأرواح تُبهجها السعادة ، ويُضنيها الهمّ والحزن .نعود إلى قصتنا :كانت جارتهم زوجة التاجر الثري تسمع في كلّ يوم تلك الألحان المضحكة ، وتسمع بعض الغناء وهي تسترق السمع من خلال الجدار بين البيتين ، كم كانت تنوح وهي تُفكّر في حالها ، فهي لم تسمع من زوجها الثري كلمة طيبة من شهور مضت ، كيف له أن يُحدثها وهو دائم الانشغال في دفاتر حساباته.

لقد أخذ المال والأعمال كلّ وقته ، ومن النادر أن يعود إلى البيت في وقت مُبكّر ، بينما تبقى زوجته وحيدة تتحسّر على نفسها .كانت تخبر زوجها في كلّ يوم عن جاريهما السعيدين ، وتندب حظها العاثر ، حتى ملّ الرجل من كثرة الشكوى وقرر أن يجد حلاً يُوفّر عليه عذاب النوح والشكوى من زوجته كلّ ليلة.

توجّه في الصباح إلى بيت الخبّاز البسيط وقال له" :سمعتُ عن حُسن أخلاقك وأمانتك ، فهلا تعمل في متجري ، وتُمسك لي دفاتر الحسابات ؟ فأنا لم أعُد قادراً على اتمام كلّ أعمالي بمفردي ،"فرح الخبّاز بعرض التاجر ، وخاصة أنه ليس في حاجة إلى الالتزام الكلي بعمل طوال النهار ، وكم كان سعيداً أنه سيعمل في مجال الحسابات والأرقام التي يُحبّها.

أخذ الخبّاز من التاجر دفاتر الحسابات إلى البيت كي يُدققها ، وفي اليوم الأول تناول الطعام وهو على عجلة من أمره ، وفي اليوم التالي كان متعباً ونام سريعاً بعد الفراغ من حسابات اليوم ، وفي اليوم الثالث ، ثار غضبه عندما طلبَت منه زوجته أن يُغنّي لها حتى ترقص ، وهكذا حتى انقضى اسبوع وهو في حالة من التعب والإعياء ، ولأول مرة في حياته رأى زوجته قرة عينه تبكي فسألها:

ما بالك يا حبيبتي تبكين ، ألم أشترِ لكِ ثوباً جديداً ، ألم تتناولي أفخر طعام هذا اليوم ؟ فلماذا البكاء ؟

أجابته بحكمة وقالت" :لم أكن اشتكي من سوء طعامنا ، فكسرة الخبز كانت تُشبعنا ، ولم أكُن في حاجة إلى ثوب جديد.فأثوابي لا زالت في حالة جيدة."

علم الخبّاز إلى ماذا ترمي زوجته وقال" :أنتِ على حقّ ، لم يكن المال همّنا ، فنحن في عيشة لابأس بها ،"قالت له مُبتسمة" :هناك الكثير من الناس يشتهون حياة كحياتنا ، وقلائل مَن تُقنعهم السعادة وحدها."

نظر الشيخ إلى وجهي مُحدّقاً وقال:

السعادة بين يديك ، فلا تبحث عنها في أماكن أخرى ، المال وحدة لا يجلب السعادة ، المال وسيلة وليس الغاية ، وكذلك كلّ شيء هو وسيلة إلى محبة الإله ، ولا شيء يعدل الرضا.

الأمور بعواقبها

تأزمت الأوضاع في البلاد ، واندلعت نيران الحرب في كلّ مكان ، واختبأ الأولياء والصالحون ، ولزم كلّ واحد مكانه حتى يُؤذن له بالخروج من جديد ، فلم تعُد ترى في الطرقات تلك الوجوه الباسمة ، ولا تلك الأسارير المشرقة ، وأصبح الخوف والألم يعتصر أفئدة الناس.

إنّ اجتماع الناس على برامج سلبية معينة ، يُعزز النتيجة السلبية ويُضاعفها ويُقرّب من موعد حدوثها ، ويجعل البلاء عاماً ، مثلما هو اجتماع الناس على الشيء الايجابي يدعم ويضاعف من النتيجة الايجابية ، ويتمّ توزيع النتيجة الايجابية على كلّ شخص مُشارك مضاعفة بعدد المشاركين.

أنا واحد من هؤلاء الناس البسطاء ، أرى بعيني وأحزن بقلبي ، ولا شيء يُمكن لي أن أفعله ، وقد حرّم عليّ شيخي الخوض في هذه الدائرة السوداء مطلقاً ، وكم نصحني أن أبقى في حال الترقب والدعاء والابتهال إلى أن تنزاح هذه الغمّة على خير .لقد أكّد لي على ضرورة أن يتراجع الناس جماعياً عن أفكارهم السلبية ، وإلا ستمتدُّ النار كي تشمل كل أحد وكل شيء.

كنتُ أعيش في منطقة مُتطرفة عن وسط العاصمة ، وسرعان ما وصلت الشظايا إلى هناك ، وتحاصرت البلدة أياما وأسابيع طويلة ، وليس هناك صدفة ، بل كل شيء له ترتيب مسبق من المُقدّر ، التقيت بشاب أحبّني ، وقد شارك في الحرب فترة ثمّ أُصيب فيها ، راح يُرافقني ويروي لي أحاديث الحرب وويلاتها ،

وقصصها الغريبة ، وأنا أسمع وفي قلبي حسرة على ما آل إليه حال الناس في بلادي.

رويتُ لزوجتي بعض القصص فانتابها خوف وقلق ، ولم تكن امرأة عادية ، فشعورها بالقلق كان يعني أشياء كثيرة .حاولَت وبشتى الوسائل أن نبتعد عن المنطقة ، ولم أكن أعلم أنها تُحاول إبعادي عن المكان بأيّ طريقة ، إلى أن جاء ذلك الحلم الغريب.

كان شيخي الحبيب قد أعطاني آيات من القرآن الكريم أحملها معي على نحو دائم وأخبرني بأنها حرز من السوء والشيطان و أهله ، وفي ذلك المنام ، كنتُ قد فرغتُ من صلاة الفجر عائداً إلى البيت ، فرأيتُ رجلاً يلحقني أنا وصديقي الشاب الذي تعرّفت إليه ، ثمّ وصل إليّ وأطلق رصاصة من مسدسه ، وأصابني في قلبي ، شعرتُ بأعراض الموت الحقيقي من جديد.

استيقظتُ وأنا ألهث من شدة الذعر ، واضعاً يدي على قلبي ، وكأنني تلقيتُ الطلقة بالفعل ، أيقظتُ زوجتي ، وراحت تمسح لي على المكان ، وممّا ذهلني أنني وجدتُ الورقة التي أعطاني إياها شيخي في الصباح وهي مثقوبة!

أُصبنا بالذهول بضع لحظات ، وحمدنا الله بعدها ، وعلمنا أنّ الحماية الإلهية كانت للأعداء بالمرصاد .لم يندهش الشيخ حينما رأى الورقة مثقوبة ، بل قال: "عين الله ترعاك ، وكلماته حرزك الدائم ."بعد مُدة ، أُشيعت أخبار حول اختطاف بعض الأشخاص من المنطقة ، ممّا سبب لي بعض القلق ، وكان صوت العيار الناري يتردد على مسامعي بين الحين والآخر ، فينقبض قلبي وأشعر بالضيق.

إلى متى سنبقى على هذه الحال؟ مرت أعوام ولا تزال الحال من سيء إلى

أسوأ ولا أحد يعرف إلى أين ستقودنا هذه الحرب؟ أردتُ بشدة في أثناء ذلك أن أغادر البلاد، فأنا في حاجة إلى فتح أبواب الرزق، فأحوال البلاد لا تُبشّر بالخير، فهيأ الله لي عملاً وأنا داخل منزلي، ولم أكن في حاجة إلا إلى حاسوبي وجرعات من الكهرباء بين الحين والآخر، ومنّ الله علي بالعمل في التعليم مرة أخرى، وتذكرتُ قول شيخي الدائم" :من أكبر نِعم الله على الإنسان أن يجعل له رزقه في بلاده ،"وقوله" :لو ركب الإنسان الخيل هرباً من رزقه، لركب الرزقُ البرقَ ولحق به."

بيد أني كنتُ مصراً على السفر، شعرتُ برغبة مُلحّة وكأنها حالة هرب جديدة أمرّ بها، ولكن هذا المرة هروب من ماذا؟ لم أكن أستطيع فهم الأمر، وكان لزوجتي دور كبير في تنبيهي إلى أنّ طفلي في حاجة إلى وجودي، أخبرتني مراراً: "إنّ وجودك في المنطقة ذاتها ولو أنه يعيش مع أُمه، إلا أنّ هذا يُعطيه الأمان، فأنت على مرمى حجر من لقائه متى أردت، لا تُكرر قصة ولدك هناك في بلاد الغرب."

***

علمتُ في هذه الفترة بالذات أنّ ولدي الكبير يتعاطى المُخدرات، وكم ضاقت بي الدنيا وأحسستُ بالندم والألم، ولكن ما من عمل إلا الدعاء له، وإرسال النقود له كي يلتحق بمصح للعلاج حيث يعيش.

جلستُ أتذكّر أنه عندما أحضرتُ ولدي إلى بلادي مدة قصيرة من الزمن وكان أصبح شاباً، كان يرى شيخي ويُعانقه ويبكي بين ذراعيه، لم تكن صدفة عودته في تلك السنة بالتحديد ليُجالس الشيخ، كان يقضى مدة الجلسة نائماً فيراه الشيخ ويضحك ويقول:

ـ العلم الذي يتعلّمه الآن أكثر تأثيراً مما تتلقّاه أنت.

-لكنه لا يُتقن لغتنا!

-علوم الله لا علاقة لها باللغة والأقوال ، بل هي أنوار تنهمر كالمطر ، وهنيئاً لمَن اغترف.

خضع ولدي إلى العلاج مدة من الزمن ، وكنتُ أتابع تطور الأحداث معه كلّما أُتيحت لي الفرصة ، كانت أُمّه تُطلعني على المُستجدات ، وقد أوشكوا أن يفقدوا الأمل كلياً في شفائه ، فقد نالت المُخدرات من كبده وتدهورت حاله.

بتنا ليالي قاسية ونحن نُفكّر في حلّ حيث لم يعُد هناك أمل في شفائه حسب ما قالت لي أمه .لجأتُ إلى الله وأخبرتُ الشيخ عن حاله ، فهمس لي وقال" :سيكون بخير لا تقلق."

مضت عدة أيام ، وعلمتُ بعدها أنّ الشاب أصبح في حال مُستقرة ، وبدأ يتماثل للشفاء في منعزل في الغابات بقي فيه شهران ، شعرتُ بالسعادة وتبددت أوهامي ، وأشرقت من جديد الرغبة في أن يحصل هذا الشاب على حياة أفضل.

أخبرني عبر الهاتف أنه طلق زوجته التي كانت سبباً في تدهور أحواله والتي كان مُتعلقاً بها إلى حدّ الجنون !يا إلهي قصة طلاق أُخرى من جديد !وطفله الصغير سيتربّى بعيداً عن والده من جديد !نعم ، يبدو أنّ البرامج المتوارثة لم تنتهِ بعد.

لقد فتح انفصاله عن زوجته أمامه أفاقاً لا حدود لها ، وأصبح يميل إلى الحكمة وهو الشاب الجامح المتهور ، وصار يروق له كلام الحكماء والأدباء من ذوي النفَس الداعي إلى السلام الداخلي والحُبّ والرحمة ، ولاحت إلى مُخيلتي

صورته وهو مُستلق في بيت الشيخ في مجلسنا المُعتاد ، وكلمات الشيخ أنّ الأنوار ليست في حاجة إلى لغة أو كلام أو ألفاظ .لقد حصل الشاب على ضالته ، وها هو ينهل من النور.

كحال والده ، عندما تاه في مجاهل الحياة وكاد أن يضلّ في رغباتها ، ثمّ جاءت المعونة الإلهية كي تنتشله من وحل الظلام إلى بوابة الأنوار والحكمة.

في تلك الأثناء كان لا يزال الوضع داخل منطقة سكني مُتأزماً ، بل زاد جموحاً عندما كان اسمي يتردد على ألسنة كثيرة في المنطقة ، وفي صباح وعشية كنا قد خرجنا من المنطقة على جناح من الخفاء والسرعة ، ولم نعُد إلى هناك أبداً ، وعلمنا لاحقاً أنّ يداً شريرة كانت تسعى كي تنال مني وتُرديني قتيلاً.

لم تُرعبني فكرة أنني مُهدد بالقتل ، لأنّ الأقدار مكتوبة ، ولكن كان عليّ أن أحترس وأعمل بالأسباب ، ولا تزال كلمات الشيخ ترن في أذني" :لم ينتهِ دورك بعد."

عدتُ من جديد إلى حيث أنتمي ، والمساجد تُحيط بي من كلّ مكان ، أمشي في الأحياء القديمة سعيداً ، أُشاهد أنوار العلماء يمشون في الطرقات ، وهم يقضون حوائج عائلاتهم ، وذكر الله يُنير محياهم .أراهم من بعيد فأدنو منهم ، فيُسلّمون عليّ بحُبّ كبير.

أرغب في كلّ حين أن أحصل على كلمة جديدة تُضيف إلى حياتي ألقاً جديداً ، رُبّما كلمة قالها طفل عابر في الطريق ، أو امرأة عجوز ، ورُبّما بائع متجول ، أتلمس الرسائل من كلّ ما يحيط بي ، وأقرأ اشارات الحياة بقوة ، مُوقناً أنه ما من كلمة تُلفظ عبثاً ، وليس هناك مجال للنقاش في أنّ كلّ شيء في الحياة يدور كي يُسعدنا ، ولكن البعض يرغبون في البقاء سجناء الماضي يُحرّكهم

الشوق إلى تغييره ولم يعلموا أنّ الماضي لا يتغيّر إلا إذا كان الحاضر قد أصبح نظيفاً من آثار الماضي وآلامه، وأنه يجب أن يتطلّع الواحد منا إلى واقعه فيجعله أجمل، ويحنو على ذاته حتى يتمكّن من التعامل مع مواقف الحياة بحُبّ يجعل من كلّ شيء أجمل.

ما زالت القصة مستمرة

عندما أُلقي نظرة إلى الماضي ، أعرف تماماً أنّ هذا الرجل الذي أراه الآن لا يُشبه هادي في الماضي إلا ببعض الملامح التي لم تتغيّر ، وصفات لم تطلها يد الأيام ، بينما هناك الكثير من الصفات الجديدة ، التي جعلَت من الماضي مدرسة ، ومن كلّ يوم يمرّ نافذة إلى عالم جديد.

علّمني شيخي أنّ الله تعالى يُحبّنا فيغار على قلوبنا ،

علّمتني الطفولة أنّ البراءة والنقاء والشفافية والفرح والبهجة هي صفات عرفانية.

علّمني طلابي من شتى بقاع الأرض أن أُحافظ على كوني مُحبّاً ليناً معطاءً.

علّمني أبي أن أعمل وأكد ، وعلّمني أنّ أكون مُعلماً مخلصاً ، وأباً حنوناً.

علّمتني أمي ألا أكون إلا كما أُريد ، وأنّ التضحية من أجل الأولاد على حساب الصحة الشخصية وهمٌ وسراب!

علّمني طائري النافق أنّ من شبّ على شيء شاب عليه إلا من رحم ربي.

علّمتني أول حبيبة لي أنّ الحياة لا تنتظر أحداً.

علّمني ولدي الأول أنّ الله تعالى يختار المُقرّبين رغماً عن أنوفهم.

علمني البحر ألا شيء يبدو على حقيقته ، فالباطن أكثر عمقاً من الظاهر.

علمني أخي الأكبر أن حبل الكذب قصير.

علّمتني زوجتي الأولى أن العين بالعين والسن بالسن عندما صفعتها على وجهها أول مرة فردَت لي الصفعة بطريقة تُشبه طريقتي.

علّمتني زوجتي الثانية أنّ الحرب بين الظلام والنور قائمة حتى قيام الساعة.

علّمتني زوجتي الثالثة أنّ الغيرة من حُبّ التملك، وأنّ الحُبّ الحقيقي والحرية متلازمان.

علّمتني تعلقاتي، وعلّمني الناس المتعلقون بشاعة التعلق وأضراره وأنه يختبأ وراء الكثير من المصائب والكوارث والآلام.

علّمني السفر أنّ الدنيا تتغيّر، فاجمع أغراضك في كيس واحد، فلا تعلم إلى أين سيصل بك المطاف.

علّمني العلاج أنّ الله يُريد لنا الأفضل، وأنّ أسباب المرض الرئيسة في الشعور السلبي والتفكير السلبي.

علّمني شغفي بالنساء أنّ الرغبة تبقى لحظات وتزول كما يذوب الثلج عند بزوغ شمس الصباح.

علّمتني الطبيعة قيمة الجمال وأنّ تقديره من أعلى صفات الإنسان الواعي.

علّمني التعلّم أن أبقى طالب علم طالما بقيتُ على قيد الحياة،

علّمني الخوف أنه وحش يسرق الأحلام، وعلّمني التعلّق أن كل شيء فان.

وما زلتُ أتعلّم .وما زلتُ أتعلّم.

أيها الحبيب.

مُمتلئ بك عقلاً وروحاً

لا مكان لنقص رجاءٍ ، أو للرجاء

ليس في هذا الوجود إلاك

مولانا الرومي

من جديد ، على شاطئ البحر الرائع ، قرب ذلك الجبل العظيم ، جلستُ وحولي عشرات الطلاب من بقاع الدنيا ، جلسنا نُحاكي جمال البحر ودفء صوته العذب ، نرى الله في خلقه ، نُشاهد بعين المُحبّ كلّ ما هو حولنا.

يختال الجبل الشاهق بعظمة من أبدعه ، وتحنو رمال الشاطئ على مَن جلس عليها ، ويروي زبد البحر قصة لونه الأبيض الرائع.

كانت كلّ موجة كالشهيق والزفير ، وكان البحر يتنفّس بذكر الله ، يروي حكايات على مرّ السنين ، بعضها مُفرح ، وبعضها حزين.

أيها الأحباب إنّ جوف البحر العميق يحمل أسراراً وقصصاً وعوالم ، كما هو حال دواخلنا ، فنحن كما هذا البحر نملك من الأسرار ما يعجز الدماغ عن فهمها ، فقط استمع إلى ما يقوله وسترى العجائب.

اجتمعنا اليوم ونحن على قلب واحد ، والحُبّ يملأ كلّ ما فينا.

ما رويته لكم من حكايات ليست بالثرثرة ، أو قصصاً مُسلية من نسج الخيال ، لقد أردتُ أن تروا ماذا فعل التعلّق ، وماذا حلّ بالحب بعد التعلّق ، وكيف أنّ موت بعض الأشياء فينا رحمة ورأفة ، وكيف علينا أن نُعيد الحياة إلى أشياء ماتت منذ زمن طويل.

تنفّس أيها الحبيب تماماً كما يفعل البحر.

ليس لي أن أقول لك أيها الحبيب إلا أن تجعل قلبك مكاناً واسعاً لمحبة

الله ، وتأكّد أن ذلك المكان سيتسع أكثر وأكثر ، وستشعر بعدها أنّ الكون ينطوي داخلك من أصغر شيء إلى أكبره ، عندما يُوجد الله داخل القلب يُوجد معه كلّ شيء ، وتُصبح الربانية صفة كلّ شيء ، حتى هذا القلم الذي أكتب به هذه الكلمات ، أُحبّك أيها القلم.

أيها الحبيب ، لك مني كلّ المحبة ، فاجعل من حياتك ميدان سعادة ، فأنت تستحقّها.

أيها الحبيب ، لا تتعلّق بوالديك ، فيُصبحوا عبئاً عليك ، والقصد من وجودهما الراحة والحُبّ والعرفان ، متّعهما بحُبّك ، فهما يستحقّان ، لا تضعهما في سجن النقد ، فقد كانا يوماً هما الأفضل.

أيها الحبيب ، إنّ أولادك أمانة بين يديك ، فلا تتعلّق بهم ، حتى لا تزجهم خارج حدود حياتك ، أحبّهم ، إحنو عليهم ، ولكن لا تتعلق.

أيها الحبيب ، تذكّر أنّ تعلّقك بالشهوات والملذات سيجعل من حياتك سجناً ، تُصبح حبيساً في داخله.

أيها الحبيب ، إجعل من زوجك سكنك الآمن ، واحفظها من الضياع بسبب التعلّق والتملك.

أيها الحبيب ، إنّ الله موجود في كلّ مكان ، فابحث في أقرب الأشياء إليك ، ابحث أولاً داخلك ، واعلم أنّ النفس وأناك هي حجابك الوحيد عن الله ، أزل شوائب الدنيا وانظُر بعين الزاهد ، تأتيك الملذات على طبق من ذهب.

أيها الحبيب ، ما خُلق المال ليستعبدنا ، بل خُلق كي يجعل حياتنا أكثر سهولة ، إملكه في يديك ، ولا تسمح له بالدخول إلى قلبك الطاهر ، حتى لا

تخسره وتقضي عمرك باحثاً عنه.

أيها الحبيب ، إنّ الشقاء والسعادة موجودين ، فاختر لنفسك السعادة ، وقرر الآن أن تجعل من الماضي ذكرى.

أيها الحبيب ، كلّ تعلق بغير الله زائل ، فاختر بوعيك ما تُريد أن تستبقيه في حياتك.

تنفّس أيها الحبيب تماماً كما يفعل البحر.